مدينــة الإخــوان



تأليف:سامح عسكر

مقدمة

هذا هو الكتاب الثاني لي عن جماعة الإخوان، أحكي فيه تجربتي وأفكاري مع هذا الفكر، وأرصد الأخطاء والسلبيات التي أدت إلى صعود الإخوان في المجتمع المصري ثم فشلهم السريع في الحُكم، ثم أتصور شعور الإخوان وأفكارهم بعد هذا الفشل، وهذا يعني أنني أكتب هذا الكتاب بعد ثورة الشعب المصري في يونيو ٢٠١٣، بينما الكتاب الأول كان قبل وجود الإخوان في السلطة بزمن قليل، ثم طرحته للنشر بعد انتخاب الرئيس المعزول محمد مرسي، أي الفارق بين الكتابين يربو على عامين أترك للقارئ أن يكشف الفوارق بنفسه، وأنه لو ثمة تغييرات فكرية عندي فهي من باب الظنون أو اليقين المتغير، أو ثوابت قاطعة لم تتزحزح فهي يقينيات لم أجد -حتى الآن-ما يدفعها ، فهي أفكاري وتوجهي الأصيل.

الكتاب هو تجميع لبعض المقالات والدراسات لي بعد ثورة يونيو، وبعض الإضافات الحديثة حسب السيناريوهات والمقامات الفكرية، وأستعين فيه بدراسة أمراض الإخوان الفكرية والسلوكية التي طرحتها في ظل حُكم الجماعة، والمنشورة صحفياً وإلكترونياً تحت عنوان.."تصدع الإخوان".. وأربط بين تلك الأمراض والانتقال العاطفي والفكري للإخوان بعد كارثة فشلهم في السلطة، حيث من المعتاد والقانوني أن تتحمل كل جهة أخطائها ثم تبحث فيها لمراجعتها، وهذا يعني أن الغرض الأول للكتاب هو نصائح وتوجيهات للجماعة من باب كشف الشبهات والأخطاء والجرائم، عسى أن تجد من منتسبين الجماعة أذناً صاغية في هذا التوقيت، أو كل من يفكر على هذا المنوال أن يرى في نفسه وينظر للاعتبار والعِظة، كل ذلك من باب الأخوة في الدين وفي الإنسانية، وإيماناً منا بأن الإخوان

مهما أخطئوا فهم فصيل سياسي وديني فاعل في المجتمع المصري، وأن إقصائهم الآن من المشهد هو للمصلحة العامة التي اجتمعت عليها جماهير الشعب ومؤسسات الدولة.

وفور الرجوع للمشهد الطبيعي ستزول آثار الاحتقان الشعبي والأمني ضد الجماعة، شريطة أن تتبنى الجماعة مراجعات فكرية وسلوكية تحملها على التغيير الجذري في التوجهات، وربما يُساعد تدين المجتمع المصري في نسبة قبول الإخوان مرة أخرى، ولكن عبر مراجعات تقضي على فكرة الإخوان الرئيسة، وتنتقل بهم من مرحلة الجماعة الأيدلوجية والدينية إلى مرحلة الحزب السياسي وروح المنافسة والمحاسبة.

أخيراً فما كانت صياغتي لهذا الكتاب إلا تعبيراً عن شعوري بالإخلاص لقضيتي، وهي.."التنوير"..لا يهمني من كان وكيف سيكون، فلا أنشد النماذج والنتائج النهائية، لأن أي نتيجة عندي ستظل غير مفهومة ما دامت أمراض المجتمع من الفقر والأمية تصل إلى حد الظاهرة، نرجو محاصرة تلك الأمراض بالعلم والعدل، وإذا كان كتابي الأول عن الإخوان به نوع من .."العَشَم".. كوني كنت في مرحلة من مراحله منتمياً للجماعة، فهذا الكتاب لن يكون كذلك وسيشعر القارئ فيه عن اختفاء هذا الشئ، وربما يلمس روح المراقبة والتعليق على الأحداث وتحليل بعضها فكرياً وسياسيا، وءأمل أن يساهم الكتاب في الحركة العلمية والفكرية في المجتمع، وأن تكون مصر هي الرائدة في هذا المجال، وأسأل الله أن يوفقني في هذا الأمر والله المستعان.

سامح عسكر

السبت ١٥ مارس ٢٠١٤

رحل الرئيس السابق محمد مرسي عن الحُكم ورحلت معه أحلام جماعة الإخوان في التوسع والتمكين، وتبرز أهمية الحدث في كون فشل الجماعة يتحقق في معقلها الأم ،والتي تمددت أذرعها وخلاياها في شتى بقاع العالم..حتى وإن ظلت هذه الأمنيات كهواجس وأوهام تعتري أبناء الجماعة، بعد ما يبدو أنه الإصرار على عدم الاعتراف بالأخطاء وعدم تحمل المسئوليات، ورفض عقد أي مراجعات فكرية أو منهجية في هذا التوقيت.

ربما لاعتقادهم بأن المعركة لم تنتهِ بعد.. وهذا غير صحيح، فالمعركة منتهية فور صعود الإخوان أعلى هرم السلطة في مصر، والسبب أنه- وكما قلت في السابق –أن الجماعة تعاني من الضمور المعرفي، وانكشاف الأزمة لديها في تغلغل الفكر السلفي الوهابي بين ثناياها، وتجليات ذلك ظهرت في تفشي الرؤية السلفية لقضية "الحاكمية" حتى بين ممن نحسبهم مفكري ومعتدلي الجماعة.

القضية أعمق من ذلك ، وسنناقش بعضاً من أمراض الجماعة في هذا الكتاب ،كي تتضح الصورة أكثر وتتكون لدينا ولديكم رؤية عميقة نسبياً ،فقد قلنا قبل ذلك أن الإخوان هي جماعة تراثية ماضوية تفكر بعقول الماضي ولا مكان للمستقبل بين أنسجتها الدماغية، جماعة متشبعة بحروب الماضي وكيفية نشوء الدول وسياسات الحكام في السيطرة، هذه العقلية كثيراً ما تكون منزوعة الإدراك، وقد رأينا هذا العجز عن الإدراك في إنكار تلك الجموع العظيمة والملايين المحتشدة في ميادين مصر، جميعها خرجت ضد جماعة الإخوان وثائرة على طريقة إدارتها للبلاد، والبعض منهم ثائر على الجماعة نفسها ككيان سرى وإرهابي غامض يحمل من الكذب أكثر مما يحمل من الصدق، ولا يرى بصيص الأمل إلا في قوة تُزيح هذا الخطر الذي يتهدد حياته ومستقبله.

لذلك كان من الطبيعي أن تحتشد جموع الشعب وراء الجيش الذي كان لديهم هو المنقذ والقوة القادرة على إزاحة الجماعة وتحجيم خطرها على الأمن القومي، فإذ

وبعد رحيل الجماعة يخرج علينا وزير الدفاع بتصريح يكشف نوايا الجماعة بالسيطرة على مصر ٥٠٠ عام، وهي تصريحات فضحت منهج الجماعة الماضوي ونواياها في أخونة مصر وجعلها إمارةً دينية داخل التنظيم الدولي، وهي مقولة ذات دلالات تحمل في طياتها عُمق الأزمة لدى التراثيين بوجهٍ عام، فالتُراثي يفكر بالرواية المنقولة ويثق فيها أكثر من الحقيقة الثابتة، لأن الحقائق لديه نسبية أما الرواية فهي معصومة مُطلقة، وهكذا عاكسوا الحقائق وأبدلوها باطلاً بلباسٍ ديني يُخاطب مشاعر الناس ويعود بهم لبعض إشراقات الماضي.

أن تكون الجماعة على رأس السلطة ٥٠٠ عام كما أعلنوا لوزير الدفاع.. فهم يرون حُلم .."الدولة الإخوانية"..الذي سيُضاهي ملوك الدولة الأموية والعباسية وسلاطين بني عثمان وأمراء وشجعان المماليك ، ولكن سيكون هذا الحلم يتزين بشكلٍ دائم بتكنولوجيات الحاضر وإبداعات المستقبل..هكذا يُفكرون ..بنفس الطريقة التي انتقدها مراراً وتكراراً، وهو أن يكون الماضي هو الأساس لبناء الحاضر، وهو تصور طفولي ساذج يعجز عن إيجاد صورة مستقبلية ولو بالجرافيت، فالتاريخ يستحيل أن يكون خطياً ولو انعدمت صورة المستقبل فلن يكون للحاضر قيمة، أما الماضي فهو الشاهد للدراسة وللاعتبار ولم يكن هو الأساس للبناء أو لتكرار النماذج والأفكار.

أثناء الكتابة عادت بي خواطري إبان تكوين الدولة التركية الشاهقة المسمّاة بالعُثمانية، وكيف كانت هذه الدولة عديمة القيمة والتأثير قبل غزوها لمصر ووضع قدم الأتراك على ضفاف النيل، وقتها غزا السلطان سليم الأول بلاد العرب.. فدحر المماليك من سوريا حتى مصر، وقد انتهى به المقال في صحراء العباسية وضرب جيوش طومان باي بالمدافع في المعركة الشهيرة.."بالريدانية"..حتى هرب طومان باي متنكراً لدى أعراب البحيرة ثم القبض عليه وإعدامه على باب زويلة..لم يفكر السلطان سليم كثيراً فشرع في بناء دولته بنفي أمراء وكُبراء المماليك والشعب ..الرافض للوجود التركي، ولكنه كان

نفياً بطعم السياسة فلم يعدم أحداً منهم وسار بهم إلى تركيا ومعهم كبار الصناع والمَهرة في محاولة منه للارتقاء بدولته.

هناك شاهدين في قصة طومان باي: الأول أن العثمانيين لم ينتقموا بإبادة المماليك كم فعل محمد علي بعد ذلك، ولكن استخدموهم في إحياء دولتهم ومساعدتهم في الارتقاء وملّكوهم على مصر حيث كانوا هم أدرى بالشعب المصري من الأتراك، بينما الإخوان لم يفعلوا ذلك فشرعوا في هدم القديم وتمكين أنفسهم بالقوة ، وهذا يعني أن تشبّه الإخوان بالعثمانيين على طريقة.."وكلُ يدعي وصلاً بليلى"..في تلك الجزئية، وإلا فالدولة العثمانية هي دولة متخلفة شأنها كشأن جميع الدول الدينية الأخرى كالأموية والعباسية.

والشاهد الثاني أن المقاومة ليست قاصرة على الجانب العسكري، بل المقاومة هي حضارية شاملة ممتدة بين جميع الفئات الشعبية والمجالات الفكرية والعملية، والدليل هو ذلك التخلف المشهود في مصر المحروسة منذ أن وطأت أقدام المماليك والعثمانيين أرض مصر، فأين كانت جهود المماليك في تطوير السلاح وزرع المعارف والوحدة بين المصريين، بل أين كان العثمانيين أنفسهم من العالَم الجديد والأمريكتين وأفريقيا الذين أصبحوا -منذ ذلك الحين- مستعمرات ودول أوروبية، وعليه فالانتساب الإخواني لحضارة هؤلاء المتخلفين هو اعتراف بالتخلف والاستبداد، حيث كان الإقتداء بالغبي اعترافُ بالغباء، وتقليد المتنازعين على السلطة هو اعترافُ آخر بأن السلطة هي الهم الأول لديهم.

أقل ما يُقال عن معارك المسلمين في سوريا ومصر- حينها- أنها كانت معارك على النفوذ والمال وليست للعلوم وللاكتشافات الجديدة ، وهو الشاهد من وراء هذا الجزئية، أن الإخوان يبحثون عن النفوذ والسلطان كي يبنوا دولتهم المزعومة استناداً لرؤيتهم حول دور العثمانيين في التاريخ المسمى.."بالإسلامي"..بينما كان أجدادهم فقراء في معرفة العالَم ولم يساهموا في رؤية المستقبل.. وما غاب عن

العالَم المتحضر من معارف كان سبباً في وصول الأرض إلى ما هي عليه الآن من حضارة.

أزعم أن دولة العثمانيين لم تكن لها أن تدوم فيما لو تقدمت عصور الإصلاح والتنوير قرنين من الزمان، فشرط من شروط السيادة أن يسود العقل في تقدير الأمور وإعلاء حالات النقد ووضعها تحت المنظار، بينما ذلك يتطلب رؤية شاملة للتراث الذي يمثل لدى الإخوان أصلاً يُعتمد عليه في بناء المستقبل، وهم يتحججون لذلك بأن النقد يعني نقداً للدين ، وأن من يطالبهم بمراجعة التراث هو يطالبهم بالإلحاد، وهو رد ساذج ينم عن رؤية سطحية فيما لو كانوا يعتقدون أن فهمهم للدين هو الدين نفسه، فكيف بهم يقبلون الخلاف ويتحزبون ويتفرقون في أمر الدين ووصلوا به إلى مئات الفرق والمذاهب، بل ترى البعض منهم يحذر من تكفير الفِرق وهو يعلم أن الخلاف في الأصول لا الفروع!

عموماً كان الشعب المصري يعرف الإخوان وهو على دراية تامة بأحوال الرجال منهم، ولكن أزعم أن هذا الشعب لا يزال عُرضة للتأثير من نفس الجانب الذي دخل منه الإخوان ..ألا وهو جانب التراث ، فهو يقبل الإخوان إذا ما تحدثوا عن التراث، ولكنه لا يقبلهم إذا ما انتقلوا لمرحلة السيادة عليهم، وكأن الشعب المصري يحمل في جُعبته مخزوناً من العقل الجمعي والشعبي الرافض لجميع ملوك الأمويين والعباسيين والعثمانيين، ويرى أن تكرار تجربة الأُسَر والأحزاب لن تجر عليه سوى الويلات، وأنه يفضل أن تحكمه مؤسسات الدولة الأمنية والقضائية على أن تحكمه الأحزاب والجماعات.

لذلك قلنا ومنذ زمن وبالتحديد وقت الترشح للانتخابات الرئاسية..أن الشعب المصري لن يقبل سوى بالرئيس التوافقي أو الرئيس الزعيم، سوى ذلك فسيثور على أول رئيس إذا ما افتقد لهذين الشرطين، فكان سقوط الإخوان حتمياً لتقدمهم بمرشحها للرئاسة، ولم يكن هذا المرشح يتحصل على هذين الشرطين ، بل أقل ما

يُقال عنه أنه رئيس.."مسخَرة"..كان حديث الشارع ببلاهته وضعف قواه العقلية والعصبية، وامتلأت قلوب المصريين حنِقاً عليه وكراهية بعد وضوح انتماؤه وائتماره بأمر الجماعة التي يكرهها ولا يريد لها السيطرة، فسارت الأمور في طريقين الأول هو طريق السلطة وتحضيرها .."للدولة الإخوانية".. التي ستدوم ٥٠٠ عام..والثاني هو طريق الثورة والتجهيز لطرد الإخوان بعد عامٍ واحد من عمر هذه الدولة.

إن فقه المرحلة يُحتم على الجميع النظر في الواقع المصري استناداً على هذه التجارب المخزية، والوقت لا يتسع لذلك نظراً لسرعة الأحداث ومدى تأثيرها، ويكفينا في هذا الباب أن نشير إلى أن فقه المرحلة يحتم على الجميع النظر إلى أبعد مما نحن عليه في الشأن المصري.

باختصار فالأزمة في مصر ليست في جماعة أو فصيل سياسي-أياً كان -أراد الاستئثار بالسلطة وفرض برنامجه ورؤيته الفاشية على الجميع، حتى بفرض حدوث ذلك فالمجتمع مسئول عن نشوء مثل هذه الفصائل وصعود نجمها وأفولها مرة أخرى بهذه السرعة..أنا لا أطمئن لأي دعوات تختزل المشكلة المصرية في حالة سياسية، لأن العوامل التي صنعت ذلك ستصنع فصائل أخرى حتماً وإن تسمت بأسماء أخرى وجاءت تحت عناوين مختلفة، وقد أشرت في صفحتى الشخصية على الفيس بوك منذ أيام إلى أن الأجواء .."الفكرية".. في مصر تسمح بنشوء جماعات عقدية وأيدلوجية بل وفاشية، وهو ما ينذر بخطر جديد إذا ما لم تتبنى الدولة خطاباً ثقافياً شعبياً يشرح العلاقة بين الدين والدولة من منظور ثقافي بعيداً عن العاطفة والرؤية الدينية، فالرؤية مهما صحت هي رؤية نسبية بشرية لمُطلق الدين، وكما أن المذاهب الفقهية اختلفت وأنتجت لنا أحكاماً مختلفة، فالمذاهب السياسية لابد وأن تختلف وستنتج بالضرورة أحكاماً ورؤى مختلفة.

في تقديري أن منهجية الإصلاح تأتي من شيوع العقل الناقد وضرورة الشك، فلو لم يشك الإنسان لما وصل إلى اليقين، أو كما قال البعض بأن الشك هو موقف عقلي واتجاه فلسفي يأتي بعد تفكيرٍ وتدبير، وهذا ما نسميه لدينا بالبحث، فالباحث بالضرورة هو من الشكاك، ولو لم يشك لما كان له أن يبحث...بهذا الأسلوب ربما نخلص إلى اتجاه فكري سينقد كافة الحركات الفكرية والسياسية على الساحة، ولن يستثني أحداً من هذه المراجعات، فالجميع مسئول عن هذه الأزمة في مصر والتي أراها في محض الثقافة، وأن تجلياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية تُثبت أن الثقافة هي عصب الأمم، وهي الشريان التي تتغذى عليه الشعوب، ولا ثقافة حقيقية دون شك ونقد للغُلاة من كل الأطراف، وقتها سنصل لبعض خيوط الأزمة المتمثلة في اعتقاد كل فريق بامتلاكه للحقيقة المُطلقة..وهنا الكارثة، فلا يوجد فريق يمتلك هذه الحقيقة أبداً.

هذا لا يعني أن المُشكلة في مصر أفقية في كيفية تعاطي الإنسان مع الدولة، بل هي رأسية في عجز المصريين عن تغيير واقعهم والتحكم فيه، فهم أسرى للتجارب الفاشلة والتي هي في تقديري تنبع من تعدد المحرمات الثقافية وضعف العقل الناقد، وقد ظهرت نتائج ذلك في الاعتقاد بأن الحل في التخصص، أو ما اصطُلِحَ عليه.. "بالتكنوقراط"..ولكننا جربنا التكنوقراط منذ عقود ولم يتغير شئ، ربما استطاع المتخصصون حل بعض المشاكل الآنية، ولكن كل هذا معدود ضمن علاقة الإنسان بالطبيعة، بينما الحل في قدرة الإنسان على التحكم في هذه الطبيعة وتغييرها، لأن التغيير الحقيقي يأتي من رحم القدرة على فعل الأشياء، ولأن عجز الإنسان يضعه ضمن علاقة توافق وصراع مع من حوله، لكن لا يستطيع بحال أن يتحكم في من حوله، ونحن في مصر والعالم العربي لا زلنا نعجز عن إيجاد أو الحصول على تلك القدرة .

وتستمر الأزمة بصورة أخرى طوباوية ..فمنذ أن كنت في جماعة الإخوان كنا نسمع دعاوى المجتمع الإسلامي الفاضل، وأن هذا المجتمع هو لُب النهضة

والحضارة، فكان الإخوان يسعون إلى إفهامنا بأن هذا المجتمع هو ضرورة تفرضها تحديات الواقع، وأن عليهم تحقيقه مهما كان الثمن، فعُقِدت اللقاءات والندوات-الداخلية-وتمت طباعة الكتب والرسائل التي تناقش هذه المسألة وتُعطي للعقل فُسحة بأن يتخيل هذا المجتمع الفاضل، فكان لذلك العمل أثراً تكوينياً على وعينا بأن اعتقدنا أن المخالف يرفض هذه الصورة التي ابتنيناها في أذهاننا!..وأن من واجبنا نحوه أن ندعوه إما بكسب عاطفته وإما بكسب عقله، فهو في كل الحالات مُقصّر في تحقيق هذا المجتمع، سواء كان تقصيره عن جهل أو عن علم ..هو في المحصلة لا يصلح لقيادة المركبة، وأن الضرورة لا تسمح إلا بارتقائنا-نحن الإخوان-سُلّم المسئولية.

كنا حينها لا ننتبه لأمر خطير لم يشغل بالنا ولو للحظة، وهو أن بناء هذا المجتمع الفاضل يتطلب أولاً قيادة راشدة وفاضلة تقوم على إبراز تلك الفضيلة في أذهان وقلوب الناس، فالمجتمع هو مرآة السُلطة والعكس، أو كما قيل في وعي المسلمين.."أيما تكونوا يُولّ عليكم"..ويعني أن المجتمع الإسلامي الفاضل لن يتحقق -ولن يكون فاعلاً- إلا بفضيلة من يقومون على أمره..والفضيلة ليست فقط هي الأخلاق إنما تكون بسد الذرائع والثقوب في النفس الإنسانية والتي تسمح بمرور الشك، أعني بذلك أن الإخوان هي جماعة ذات طبيعة سرية، ولكن العمل السري يقضي على الشفافية والوضوح، والإنسان لا يرى الحق في أغوار الكلام إلا حين يكون عالماً مُطلعاً.. فالأغلبية العُظمى لا يرون الحق في أي سلوكيات مدفونة وغائبة عن أعين وأفهام الناس، لأنهم بحاجة دائمة لإبراز العمل لهم كما هو، وأن التفسيرات المصاحبة للعمل ضرورية للفهم، ولكن من أين ستأتي هذه التفسيرات والعمل نفسه غامض ويجري الكتمان على كثيرٍ من جُزئياته؟!

إذن فهناك خلل تنظيمي وفكري داخل جماعة الإخوان يتحقق وينمو بدوام طبيعتها السرية، فالقائد يكتم أكثر مما يُبدي لجنوده، وفي كثيرٍ من الأحيان يضطر هذا القائد للكذب أو للتقليد أو للتقديس إذا ما رأى أن مصلحة الجماعة"المؤمنة"تقتضي

ذلك.. لأن من أكثر العلوم الفقهية الشرعية التي يعمل بها القادة هو..فقه "الأولويات والموازنات"..والذي يتم تدريسه للمراحل المتقدمة في الجماعة ولكن بمعزلٍ عن الأخلاق، رغم أن الأخلاق هي أداتهم المُعلنة بالدعاية بين البُسطاء وفي أواسط المثقفين، ولكن فهم الأولويات يخرج بهذه الصورة لديهم كونهم ضِعاف الفكر فيُقدمون على فهم الأولويات بأفهام السابقين، فلا توجد لديهم القُدرة على التجديد أو توجيه النصوص لفهم الواقع، ومن هذا المُنطلق تخرج أفعالهم السلبية والمُنكرة للكافة فيراها الناس فيُنكروها، بينما هم في غفلةٍ عن هذا..كونهم يرون أن هذه السلوكيات هي سلوكيات وأفهام السلف والخلف..وهي سلوكيات معصومة في طبيعتها ولا يجوز مناقشتها ..

لأن الوعي الجمعي للإخوان لا يزال متأثراً بخديعة القرون المُفضّلة، فهم يعتقدون أن عصور السلف هي أفضل عند الله من عصرنا هذا، وأن السابقين هم أفضل عند الله من اللاحقين..وهذه خُدعة كبيرة أنتجتها أنظمة الفكر السلفية التقليدية وحشوها بأحاديث باطلة جعلت مُجرمي وظالمي هذه العصور السابقة هم أفضل عند الله من المُحسنين والعاقلين في العصور اللاحقة، وتناسوا أن لكل عصرٍ عُقلاء وحمقى..ظالمين وعادلين..علماء وجُهال..والأخيرة هي فكرة طافحة في القرآن الكريم لم يُفرّق الله فيها بين الناس بمجرد الزمان ولا المكان..فيشرعون على ترجمة مفهوم السلف على أنفسهم كونهم من يحملون أفكاره وبالتالي يكونوا هم أنفسهم أصحاب الحق ومن لهم الأفضلية عند الله.

وهذا هو النظام الكهنوتي الذي يبدأ من اعتقاد الحق في الذات والباطل في الآخر..هكذا دون مناقشة أو احتكاك أو تجربة، وهو ليس قاصراً على الأنظمة الثيوقراطية التي تجعل من العقائد الدينية عملية سياسية، بل يمتد ليشمل تلك الأنظمة الدونية سواء العِرقية أو الأيدلوجية الحزبية، فأي اعتقاد بامتلاك الحقائق وجعلها مُطلقة يجعل من النظام الإداري مُقدساً، وبالتالي لا يجوز نقده أو أيٍ من سلوكياته، لذلك أنا أتفهم ضيق الإخوان -والزُمرة الحاكمة في مصر- من أي نقد

يُوجه إليهم، ويعملون على شخصنة الأمور بحصار الناقد أو من يعمل على إظهار السلبيات أو الأخطاء أو الجرائم التي بُنيَ عليها النقد، والأخيرة هي سر هجومهم الدائم على الإعلام، ووصمهم له .."بسَحرة فرعون"..رغم أن وظيفة الإعلام الأولى هي نقل الحقائق والأحداث وإظهار الواقع كما هو، ومن هنا سُميَ إعلاما، ولكن بما أن الإخوان يريدون العمل دون ضجيج فيعتقدون بأن المعارضة والنقد هو في ذاته ضجيج.. يُعيقهم عن استكمال أدوارهم ومشاريعهم .

والإشكالية الأكبر التي يواجهها الإخوان وتيارات الإسلام السياسي كافة.. هي أنهم مُطالَبون ببناء مجتمع جديد يقوم على أسس أخلاقية، ومع هذا المطلب فهم لا ينتبهون إلى أن المجتمع الجديد قد لا يكون أخلاقياً، أو أن يكون مجتمعاً أخلاقياً ولكنه ليس مجتمعاً جديدا...وتحصيل هذا المطلب لديهم يكفي بإتباع أفهام السابقين الذين يعتقدون أنهم الأفضل، ولكن كيف تكون أفهام السابقين كافية لبناء المجتمع الجديد؟..هذا لديهم مبررات له، ولكن هي مبررات غير واقعية تتصور المجتمع - وأفهام السابقين - بصورة طوباوية مثالية منزوعة عن أي مؤثرات عصرية كالحداثة والإعلام والاتصالات..وبالتالي لم يعد أمامهم سوى المجتمع الأخلاقي..وهنا أيضاً توجد لديهم مُشكلة ، وهي أنهم يربطون بين صلاح الإنسان وبين معرفته، فيعتقدون بأن الإنسان الصالح-لديهم-هو بالضرورة من العلماء يجب الاحتكام لرأيه، وهذا الاعتقاد غير صحيح، فالمعرفة قد تكمن في نفوس الطالحين، وقد يكون الإنسانُ صالحاً ولكنه جاهلا..هذا إذا سلمنا بصحة تعريفهم وإيمانهم بالمعرفة فالكثير من تيارات الإسلام السياسي لا يزالون في عداءٍ مُعلن ومُبطن مع بعض أنواع المعارف والعلوم.

من ناحية أخرى أعتقد بأن الأزمة في مصر هي الاعتقاد بعلو النموذج، بمعنى أن هناك من يرفع نماذج فكرية وسياسية عِدة كالعلمانية أو الشيوعية أو الليبرالية أو الاشتراكية أو الرأسمالية أو القومية، كل هذه النماذج صارعت بعضها البعض سواء في ميادين الفكر أو في ميادين السياسة والتجارب..والإنسان المتدين بعقله لا

يفهم طبيعة هذه الصراعات، لأن تدينه عنى به في المقام الأول صراع الحق والباطل بين الأديان، ذلك كون الأديان لديه هي المُنظمة لحياة البشر، وأن العمل على تحقيق مكنوناتها وضروراتها يعني تحقيق المجتمع الفاضل..

وبالتالي نشأ لدى المتدينين نموذج مختلف يطالب بالعودة للدين في مقابل هذه النماذج المتصارعة السابقة..ساعد على ذلك فصاحة وبلاغة القوم الداعين إلى هذه العودة "المقدسة"...ولكن مع تدنى كفاءة تيارات الإسلام السياسي في مصر وفشلهم في التواصل مع واجهات العمل المجتمعي والنقابي والسياسي، تسبب ذلك في انهيار الدولة عبر انهيار القانون التنظيمي وعدم احترامه، فشاعت في مصر ظواهر حدود الحِرابة على المجرمين واللصوص وما يتبعها من انفلات أمني، وأزمات متعددة كحصار المحاكم والتعدي على الشُرطة وغيرها من الأزمات التي هي في ذاتها مُرشحة للنمو والتطوير أو أن نُفاجأ بغيرها كالعادة.

حتى مع شيوع تلك الظواهر السلبية في عهد محمد مرسي لم يعمل الإخوان على علاجها بل استخدموا مع خصومهم سياسة.."العصا والجزرة"..في سلوك دفاعي أدى إلى تغاضيهم عن أزمات المجتمع في سبيل الحفاظ على كيانهم الذاتي والأيدلوجي الفكري، فالإخوان عندما يشعرون بالأمان -وبضرورة التواصل لتحقيق مصالحهم -يرفعون نداء التطمين..على سبيل المثال فعندما يريدون منفعتهم من الجناح السلفي أو المتشدد فيرفعون لهم نداء الشريعة لدعمهم..وعندما ينقلب عليهم هذا الجناح فيرفعون عليهم سلاح الإرهاب والتطرف، وكذلك التيار المدني أو العلماني فيرفعون لهم نداء الدولة المدنية لدعمهم..وعندما ينقلب عليهم هذا الجناح يرفعون عليهم سلاح العلمانية والإلحاد...هي سياسة مفضوحة من تيار لا يُجيد العمل السياسي إلا في إطار منظومة الأنصار سواء للأفكار أو للأهداف، وبالتالي فلا نستغرب من كِلا الجناحين المُختصمين مع الجماعة ألا يقعوا في شراكها..وإذا وقعوا مرة فالثانية محل شك كبير.

قد يظن البعض أن هذه السياسة علامة قوة، ولكن على عكس ما يرى هؤلاء فأراها علامة ضعف..والسبب أن هذه السياسة تكون علامة قوة فقط إذا ما تمكن هذا الطرف من تثبيت نفسه كقاعدة حضارية متقدمة في مجالات كثيرة..عسكرية مثلاً أو سياسية أو فكرية أو اقتصادية كالولايات المتحدة الأمريكية وهي أشهر من يستخدم هذه السياسة لتحقيق مصالحها، لكن في الأعم من يسلك هذا السلوك لا يرى سوى الذرائعية وسيلة دنيوية لتحقيق مصالحه بغض النظر عن نزاهتها أو أخلاقياتها...فعندما تدعم الولايات المتحدة الإخوان فهي تدعمها من باب التعايش وأمن إسرائيل ومزايا الدين الإسلامي، وعندما تواجههم فبنفس السلاح التي واجهت به الإخوان التيار السلفي بالعموم وهو سلاح التطرف والإرهاب..وهو سلوك بالمُحصلة يرى في الواقع آليات تحركه، فيستفيد منه دُعاة التنوير كون وقوفهم على أرضٍ صلبة ويعلمون جيداً ماذا يريدون، ويتضرر منه دعاة الانغلاق كونهم يستخدمون الدين للتواصل وهم لديهم قواعد إذا ما مارسوا الانفتاح خسروها.

بمعنى أن جماعة الإخوان المسلمين تخشى الانفتاح على الآخر سواء سياسياً أو دينياً، والسبب في ذلك أنهم يعتقدون بأن الانفتاح على الآخر سيُفقدهم كوادرهم لصالح التيار السلفي أو المتشدد بالعموم، فالتربية الفكرية للإخوان آثرت الابتعاد عن رؤى التنوير ونقد الذات إلى رؤىً أخرى أكثر أصولية فكان أغلب مؤيديها وأنصارها من التيار الأصولي السلبي والمتشدد، وهؤلاء يدعمون الإخوان من أجل جَزرة.."الشريعة"..التي يرفعونها لكسب الدعوة والأحزاب السلفية، فالمقصود من العملية السياسية في الوعي الإخواني ليست إفاقة.." غُفاة البشر"..بتعبير الشاعر عمر الخيام..بل على.."توجيه البشر"..بنزعة قيادية تضع الجماعة ومكتب إرشادها هو المُعلم والموجه الأول..

هناك فارق بين مفهومي.."الإفاقة والتوجيه"..كون الإفاقة تعني التمرد على الواقع السلبي ابتداء، هذا التمرد هو عملية فكرية منهجية شاملة لا تختص بالجانب

السياسي دون غيره، فيقوم الإنسان بالتمرد على كل مصدر من مصادر الانغلاق والجهل والفقر والتعصب..فيُصبح سلوك الإنسان في هذه الحالة أقرب إلى المراجعة الجذرية الشاملة لمفاهيمه التي أوصلته إلى ما هو فيه من واقع سلبي، وإذا عُدنا لتعبير الشاعر عمر الخيام ومقصوده من مفهوم الإفاقة سنجده يقصد بعض العلماء والمثقفين الذين رفعوا شعار التنوير والتواصل مع الآخر كمحمد عبده ورفاعة الطهطاوي وغيرهم..وبذلك وضح لنا مقصوده، أما مفهوم التوجيه فهو يفترض القفز على الواقع السلبي المُتجذر إلى مرحلة أخرى وهي مرحلة التوجيه..بمعنى أن الإخوان منذ نشأتهم وهم يتعاملون مع الواقع السلبي برؤية سياسية محضة حملتهم على الدعوة للخلافة "الراشدة"بعد انهيار الخلافة العُثمانية في تركيا، وبذلك تكون دعوتهم للتوجيه هي من موقع القيادة لا من موقع التوعية والحض على التمرد على كل شئ سلبي حتى لو لم يؤدي ذلك إلى فوزهم بالسُلطة.

الآن تذكرت مقولة الدكتور ثروت الخِرباوي الذي يصف سلوك الإخوان السياسي- في هذه المرحلة –بوصف .."خُبث الفلاحين"..ومعناه أن هذا الفلاح يعتقد بأنه أذكى الناس وعلى بينةٍ من أمره وأنه قادر على تحصيل منافعه بالكذب وبسهولة تامة كونه أذكى من حوله، ولكنه يُفاجأ بأن جميع من حوله يفهمون ما يفعل.. بل ويضحكون من سلوكياته على طريقة الفنان عادل إمام في فيلمه الشهير.."عنتر شايل سيفه"..ذلك الفلاح الساذج الذي اعتقد بأنه نجح في الضحك على عقول الأجانب فيُفاجأ بأنه هو نفسه كان حلقة من حلقات فسادهم، وأنهم استعملوه للربِح المادي على حِساب سمعته وأخلاقه..فهل تُجدي العصا مع من يعتقد في عمله أنه ينُاضل ويُكافح ضد التطرف أو مع من كان صادقاً مع نفسه فطَلَب الدين عبر الدعوة وليس عبر الجماعة؟..أو هل ستُجدي الجَزَرة مع من يرى في الجماعة أنها.."مصدر أصيل للجهل والتطرف والاستغلال والتجارة باسم الدين"..أو مع من وقع في شِراك الجماعة أكثر من مرة وبدأ يتعلم من

أخطائه؟..أظن أن الشارع المصري الآن وبعد نجاح ثورته في ٢٠١٣ بات يُدرك أمر الجماعة عن قرب.

عقدة الاضطهاد عند الإخوان

كي نستطيع أن نفهم كيف يفكر الإخوان الآن لابد أولاً من استحضار صورة النظام القديم وسلطته الأمنية الممثلة في وزارة الداخلية وأمن الدولة لديهم، فقد لاقوا من الألم النفسي في هذا العصر ما وجدوه من اضطهاد وعدم اعتراف... بما يعني حظر سياسي واجتماعي كامل..كان الحل للإفلات من هذا الوضع هو أن تكون للإخوان سلطة في الدولة بأي شكل، مما يفتح الباب لاعتراف الدولة بالجماعة..وقد أراد الله أن تكون لهم هذه السلطة بعد ثورة يناير ولكن سرعان ما ضاعت بسرعة.

الآن بعد ضياع هذه السلطة- وشعور أبناء وقيادات الجماعة بالغضب الشعبي ضدهم- شعروا بالرهبة من المستقبل، فبدأوا في ترديد هواجسهم من أن يكون النظام الجديد أمني إقصائي لا يعترف بهم وبطريقة تفكيرهم في الحياة ككل... نحن لا يمكن أن ننكر شعورهم بالظلم .. ولكن هل هذا الشعور حقيقي أم وهمي؟..هل هذا الشعور محايد ومنفصل عن المصالح الخاصة أم لا؟..هل راجعوا مواقفهم وتيقنوا بوجود الظلم أم هو شعور خارجي بالتلقي؟

لمعرفة ذلك لابد من العروج أولاً على مفهوم السلطة وما بدا لنا بأنه طريقة تعامل الإخوان مع هذا المفهوم..فالسلطة في مضمونها تعني أن الحاكم سيفرض طاعته على الجميع، وأن اللائحة بين الحاكم والمحكوم لا يجب أن تكون قبل موافقة الطرفين..هذا إذا اعتبرنا أن معيار السلطة-حينها-هو العدل، أما إذا كانت السلطة معيارها القوة فتسقط اللائحة وتنحصر في مفهوم الطاعة لا غير.

الآن هل كانت سلطة الإخوان في مصر مبنية على العدل أم على القوة؟

قلنا أن معيار العدل يستوجب أن تكون هناك لائحة منظِّمة للعلاقة بين الحاكم والمحكوم، وخلال المدة التي قضاها الإخوان بالسلطة أصدروا لائحتين لتنظيم هذه العلاقة، الأولى هي الإعلان الدستوري، والثانية هي الدستور، ولكن بعد صدور كل لائحة تنشب أزمة سياسية وتظاهرات مليونية حاشدة في كافة أنحاء البلاد، وهذا دليل على أن اللائحة لم تَحُوز على رضا الطرفين..وقتها برر الإخوان مواقفهم بضرورة استكمال مؤسسات الدولة وعدم الالتفات لمن يحاول تعطيل هذا الاستكمال، ونسوا أن معيار العدل يستوجب التوافق على اللائحة كشرط أساسي لتحقيق العدالة ممثلة في الحريات وعدالة توزيع الموارد والسعادة والمساواة وما إلى ذلك من اعتبارات قيمية يبحث عنها الشعب، وأما التبرير بضرورة الاستكمال فيمكن إرجاؤه لما بعد التوافق كحق أصيل لكافة الأحزاب والطوائف والتيارات الفكرية.

حدث ما حدث وفرض الإخوان رأيهم بالقوة ولم يلتفتوا لمطالب المعارضة بمراجعة هذه اللائحة وبالكف عن التدخل في شئون السلطات السيادية وأهمها السلطة القضائية والتعامل مع الإعلام بشكل مهني، ولكن لم يستمع الإخوان لهذه المطالب وظلوا في طريقهم حتى كانوا على وشك إصدار قانون للسلطة القضائية يقضون فيه على ما تبقى من هيبة القضاء..

بمراجعة ما سبق لا يمكن لنا أن نصف سلطة الإخوان بأنها سلطة"عدل" بل كانت سلطة"قوة" حاولت فرض نفسها وإيجاب طاعتها على الجميع، وما زاد الأمر سخونة هو تدخل رجال الدين المتشددين لصالح السلطة وظهروا في الكادر الإعلامي والتنفيذي ،فكان الشعور بالخطر وتحويل مصر إلى دولة دينية مفككة.

وبدخول رجال الدين المتشددين على الخط وانحيازهم لصالح السُلطة الإخوانية أصبحت الدولة مهددة أمنياً، ولم يعد في إمكان كافة أطياف المعارضة أن تمارس حقوقها الطبيعية بشكلٍ آمن،وقد أثر ذلك على القدرات الذهنية للجميع، فبدلاً من أن تسود لغة العقل سادت لغة العنف بجميع أشكاله بدءاً من العنف اللفظي إلى التهديد بسجن وقتل كل من يخرج عن الإطار الذي رسمه الإخوان للجميع...وقد قوبل ذلك بردود أفعال على نفس المستوى بتهديد قيادات الإخوان وبحصار وحرق مقراتهم في المحافظات، وقتها كان النسيج الاجتماعي على وشك الانهيار، وأن دولة الحق والعدل التي اختالت ضمائر المصريين بعد الثورة كانت سراباً خادعاً،وأن الوضع السياسي والاقتصادي والأمني قبل الثورة كان أفضل بكثير.

ولما لا وقد كان احتكار سلطة الإخوان لكافة مؤسسات الدولة يمثل خطراً على حقوق المواطنين، حتى البديل لغياب المؤسسية لم ينجح في إيجاده الإخوان وهو بناء علاقات بين القوى الفاعلة تضمن تحقيق التوازن المجتمعي، والأخير نجح فيه مبارك بشكلٍ كبير، وهو ما يعني أن ما كان يجمع بين سلطتي مبارك والإخوان هو غياب المؤسسية، ولكن ما كان يُميّز مبارك عن الإخوان هو نجاحه في إيجاد توازن مجتمعي بسياسة حزم واحتواء حصرت مفهوم السياسة في إدارة البلاد بشكلٍ آمن، والأخير هو اتجاه يقوم على تغليب المصالح القومية على مبادئ الديمقراطية حين التعارض.

أيضاً لابد من وجود تقييم دقيق للصلة بين الإخوان والمجتمع قبل السلطة وأثناء السلطة وبعدها حتى يتسنى لنا معرفة ما إذا كان هناك شعور حقيقي بالاضطهاد أم هو شعور وهمي ناتج عن استفحال الرغبات وتعددها بشكل تراكبي عند الإخوان.

في تقديري أن الرغبة تزرع في النفس شعور سئ تجاه الآخرين، فمن الطبيعي أن تتعارض مصالح الناس، وبوجود الرغبة يجري النظر للآخرين-الذين يعملون لمصالحهم-بأنهم يسلبون ويسرقون هذه الحقوق، بينما الحقيقة قد تكون غير ذلك،

وأن شيوع الرغبة واستفحالها هو ما أدي لتعاظم هذه النظرة .."الشكّية"..تجاه الآخرين، لذلك كلما تخلص الإنسان من رغباته- أو أن يضعها في إطار مشاركة- يكون قد تحصّل على أولى الخطوات التي تبني جذور الثقة بينه وبين المجتمع.

وهذا يعني أن الرغبة كانت حاضرة عند الإخوان في جميع مراحلهم قبل السلطة وأثناء السلطة وبعدها، فهم لم يبرحوا هذه النظرة الشكية تجاه الآخرين منذ نشأتهم حتى انهيار سلطتهم، فكانوا على صراعٍ دائمٍ مع السلطة وهم في المعارضة، بل كانوا في صراع سياسي وفكري أيضاً مع بعض الأحزاب في المعارضة، بينما كان صراعهم- أثناء السلطة- يتجسد في صراعهم مع المؤسسات ومع أحزاب المعارضة التي لم تُعقد جلسة واحدة لإزالة أو مناقشة بذور الخلاف..أما بعد السلطة فاستمر صراعهم مع الحاكم الجديد وكافة الداعمين له، بل تعدت المسألة للصراع مع الشعب نفسه ووصف كل من يتظاهر ضدهم بأوصاف إقصائية.."كالفلول والبلطجية "..وما إلى ذلك من أوصاف نشأت من رحم الإقصاء والتشويه والتطويع.

لاشك بأن الإخوان بعد فشلهم في السلطة أصبحوا أكثر ضعفاً مما كانوا عليه قبل السلطة، لم تعد لهم حاضنة شعبية تأويهم من بطش السلطات، فحسب قانون الفراغ إذا غابت السلطة في وعي الشعوب حل أعداؤها في المكان، والآن يتغير الوضع لتكون للسلطة مكان في ضمائر الناس، بل تعدى الأمر لأبعد من ذلك ونرى الكثيرين يطالبون بعودة الداخلية وأمن الدولة بشكل أقوى مما كانوا عليه قبل ثورة يناير.

الخوف لم يعد من قوة الإخوان ،حتى الجانب الفكري فقد تغير الوضع إلى تنظير كامل للفكرة العلمانية التي تفصل بين الدين والممارسات السياسية بشكلٍ كامل، بل الخوف يكمن في أن قيادة الإخوان قد فقدت ضمائرها وهي على استعداد لفعل كل

شئ للذود عن أنفسها ولو بالتضحية بدماء أبناء الجماعة وشبابها في سبيل تحقيق مكاسب سياسية.

هناك خُطط مؤكدة للإخوان في مواجهة هذا المصير، وفي تقديري أنها لن تخرج من خيارات المواجهة إما الشعبية السلمية وإما بتكوين ميلشيات مسلحة ولكن الأخيرة يبدو أنها بعيدة المنال نظراً للطبيعة التي نشأ عليها الجيل الحالي للإخوان وهي طبيعة سلمية وترفض حمل السلاح، وأظن أن هناك قطاعاً عريضاً من شباب الإخوان على استعداد للحرب مع الدولة والشعب إذا تسنى له ذلك، أما الجيل الأكبر فلا أظن أن لديه استعداد للتغيير بالعنف مهما كانت الظروف، فضلاً عن الظروف الغير مواتية بدءاً من الحرمان من التعاطف الشعبي.. مروراً بتربص أجهزة الدولة وخاصةً الأمنية منها ..وانتهاءً بالظرف الإقليمي الذي أصبح أكثر تشدداً في مواجهة الجماعات المسلحة.

كان ذلك له أكبر الأثر في تحجيم قدرة الإخوان وانصياعها لرغبات السلطة، وبتقدير لطيف أستطيع القول بأنه وبسلوك نفسي- تعبيراً عن الهاجس من الآخر- وقع الإخوان في مطب الشعور بالاضطهاد، والسبب أن الحافز لديهم لمواجهة هذه الهواجس كان قهرياً، وهو إحدى نتائج السمع والطاعة، بمعنى أن الإخواني كان مُجبراً على هذا الشعور كحل وحيد لتفسير ضعف الجماعة وقوة السُلطة وبالتالي صعوبة تحقيق الأهداف المعلنة والغير معلنة أو على الأقل تأخيرها وازدياد ملحوظ في المعارضة كماً وكيفا.

النتيجة أن عَزل الإخوان أنفسهم عن الواقع واعتقدوا بأن ضعفهم امتداد لضعف أهل الحق على مدار التاريخ، وذلك في سلوك قهري للتكيف مع الواقع..أصبح بالتالي أي هدف سوى التمكين هو هدف عديم الأهمية وبقية الأهداف تحولت إلى وسائل بدءاً من التربية والاستقامة العبادية وما إلى ذلك من سلوكيات أصبحت في

الوعي الإخواني وسائل صِرفة تخدم الهدف الأكبر وهو التمكين، وهو ما يفسر حالة الإحباط العالية التي يشعر بها أبناء الجماعة الآن بعد ضياع حُلم التمكين.

هذا يعني أن شعورهم بالاضطهاد في حقيقته ليس شعوراً حيادياً منفصل عن المصالح الخاصة، وإلا لاعترفوا بحقوق الآخرين التي ستتعارض حتماً مع مصالحهم، وقد أدى ذلك إلى تحقيقهم في السلطة لإدارة مركزية دكتاتورية لا تعترف بأي اعتبارات دينية أو دنيوية، بل زادوها بسلوك توسعي امبريالي عبر ما يُعرف لدينا.."بالأخونة"..ولكن يبدو أنهم كانوا أقل ذكاءً من خصومهم، فقد تسببوا بهذا السلوك في استثارة القواعد الجماهيرية والمؤسسية والفكرية ضدهم، والسبب أن الوقت كان مبكراً لهذا الصدام الذي خرج بمنتهى السطحية والسذاجة من جماعة كان البعض يظن أن لديهم شئُ من الكياسة.

فضلاً عن أن هذه القواعد كانت بحاجة لسياسة احتواء قبل الحزم، وهم ضعفاء في هذا المجال، والسبب كما قلت مراراً وتكراراً بأنهم فقراء معرفياً ولا توجد لديهم أي ملكات ذهنية تساعدهم في التعرف على عقول وأحوال الناس،فالحاكم الناجح هو ذلك الحاكم الإنساني الذي يفرض أساليبه حسب الظروف والحاجة وليس حسب توجهاته ورغباته، وإلى كونه يجمع بين مكر الثعالب وحكمة الإنسان من جهة ، ووفاء الكلاب وقوة الأسود من جهة أخرى.

بالتأكيد موقف تركيا من ثورة يونيو يثير استحسان الإخوان، وهو يمثل قشة النجاة بين أمواج متلاطمة ربما تقذفهم خارج مصر أو خارج التاريخ، ويعود ذلك إلى أن الوعي الأردوجاني يشبه الوعي الإخواني من حيثية تصور الدين والسياسة إلى حد كبير، رغم تصريح أردوجان من قبل بأن العلمانية هي الحل الأمثل للتقدم، بينما كان الإخوان يصرخون من العلمانية جهراً وهم يمارسونها سرا، ليقينهم بأن إشكالية السلطة والمعارضة تفرض عليهم تبادل الأدوار والمواقع في النظام الديمقراطي.

بل كان دستورهم الذي فرضوه على الشعب علمانياً صِرفاً بتحقيقه كافة المبادئ التي قامت عليها العلمانية، بل كان سلوكهم في مصر علماني كونهم يفصلون بين الدين من حيثيته كعبادة وأخلاق وبين السياسة من حيثيتها كإدارة وأحزاب تتنافس على السلطة، وقد استمعنا من قبل إلى وزير الأوقاف الإخواني.."طلعت عفيفي"..يصرح بأن على الخطباء أن لا يتحدثون في السياسة...وهذا مبدأ من مبادئ العلمانية بأن أماكن العبادة مختلفة عن أماكن السياسة والحُكم...وبالتالي كانت وظائفهم مختلفة ومتباينة من حيث المنهج.

تفسيري الوحيد لهذا التناقض والتعارض لديهم هو أن النزعة الشكلية عن الدين تسيطر على خيالات الإخوان والسلطة في تركيا بشكلٍ واضح، فحجاب زوجة أردوجان يمثل لديهم جوهر الدين، رغم أن جميع بنوك تركيا ربوية، وكافة قوانين تركيا مدنية تتعارض مع رؤية.. "الإسلاميين"..للحُكم..كذلك فحجاب زوجات الإخوان يمثل نفس القيمة، فهم على استعداد أن يجاهدوا بأنفسهم من أجل الحجاب..ولكنهم غير مستعدين للتضحية بأنفسهم من أجل الفقير والقضاء على الربا وإرساء العدالة السياسية والدينية والاجتماعية، بل هم على استعداد للحرب مع الحرية بحجة الولاء والبراء، رغم أن الحرية أصل من أصول الدين لا يقوم الدين إلا به.

هكذا كان هو التحالف الإخواني الأردوجاني يظهر لنا بأنه تحالفاً شكلياً لا يمثل جوهر الدين ويتعارض مع المنطق السياسي الذي يحكمه المصلحة، وقد بدت لنا تجلياته في الخيانة التركية للشعب السوري بدعمها للإرهابيين وإيوائها لإخوان سوريا وتسليحهم للقضاء على ما تبقى من سوريا أرضاً وشعبا..كذلك في جعل تركيا مسرحاً تُقام عليه كافة عروض الأسلمة السياسية ووكراً تجتمع فيه كافة ضباع الإرهاب والعنف في العالم، بل يجري الترويج في تركيا للطائفية واستعمال مصطلحات وألفاظ تزيد من حدة الاحتقان الطائفي كألفاظ.."السنة والجماعة

والتحالف السني"..وما إلى ذلك من ألفاظ أصبح ترويجها في الإعلام التركي شيئاً معهودا..وهم مع كافة هزائمهم وثورات الشعوب ضدهم لا توجد لديهم أي بوادر لمراجعة هذه المناهج الكارثية.

ربما تأتي هذه المراجعة ولكن ليس قبل الإقرار بأن الالتزام بقواعد اللعبة الديمقراطية يتفق مع جوهر الدين، وبذلك يجري نزع الرغبة الحادة في السلطة كونها جامحة قد تتخطى حاجز الديمقراطية إلى الانفراد بالرأي وتكوين جبهات على أساس عقدي أو أيدلوجي مثلما حدث في مصر، فالرغبة الجامحة في السلطة من قِبَل الإخوان أجبرتهم على تكوين جبهات سياسية على أساس عقدي وأيدلوجي معاً، فتم استبعاد كل من يختلف مع الإخوان من حيث هذه الرؤية الثُنائية.. وجرى تغليف هذا العمل بمواقف بعض المنتفعين لئلا يُقال أن الإخوان إقصائيون.

ولكن ما فضحهم أنهم لعبوا هذه اللعبة بسذاجة بالحرص على نوعية ودرجة المادة الفكرية والسياسية التي يقدمونها للإعلام، بينما ظلوا على مستوى القواعد يروجون لهذا المنهج الإقصائي معتبرين أن الشعب والإعلام في غفلة عن هذه الأعمال، كذلك وعبر هذا التحالف الإقصائي ظهر لدينا من هم أقل في المستوى من حيث العقل والكفاءة، فرأينا الشيوخ وهم يتحاكون بمناماتهم الخُزعبلاتية عن أن الله سينصر الإخوان والرئيس السابق مرسي، ولم ينتبهوا إلى أن الشعب كان يُحمّل مسئولية ما قاله الشيوخ للجماعة وللرئيس، كونهم يتحدثون من على منبر الجماعة ويقفون معها في صفٍ واحد، ويقدمون خطاباً واحدا.

هم حتى الآن في أدبياتهم لا يستطيعون فض الاشتباك بين ما هو سياسي وبين ما هو ديني، بدليل أنهم ينفون عن أنفسهم تُهمة التكفير وفي نفس الوقت يُجاهرون بأن الخصومة ليست مع الإخوان ولكنها مع الإسلام، فلم يكن لخطابهم الديمقراطي أي مصداقية قد تُشجع الآخر على الحوار، فظهر من سلوكهم بأنهم يقولون ما لا يفعلون، وأن التقية أصبحت عنوان الجماعة بشكلٍ واضح، وهذا كله نتيجة

لرفضهم فك أي روابط تنظيمية ما بين الأحزاب والجماعات الدينية المسيطرة على توجهات هذه الأحزاب.

هذه التركيبة العقلية والمنهجية للجماعات الدينية لم تكن سهلة التفكيك كي يجري اعتمادها كمنهج حقيقي وواضح، فحسب الرؤية الديكارتية لا تكون الفكرة صادقة إلا بوضوحها وإلا فهي كاذبة، ويعود ذلك إلى أن وضوح الفكرة تكن قابلة لتصورها في كل المواقف، فكل فكرة لها دور وظيفي تؤديه ضمن النظام الكوني، وعدم وضوحها يعني أن هناك خللاً في تصور هذا النظام الكوني، هم حتى الآن ورغم مآسيهم مع الشعب والجيش غير قادرين على التخلص من وهم الخلافة والأستاذية المسيطر على خيالات الحمقى منهم..وهذه دلالة الخلل المنهجي لديهم والذي يفرض أن تكون الأفكار قابلة للتطبيق بنزعها من عمومها وشمولها إلى إجراءات وتطبيقات على الأرض.

ليس هكذا فحسب بل يجب أن تتسق مع المعايير التي وضعوها لأنفسهم، وفي تقديري أنه لا يوجد معيار واحد استطاعوا تحقيقه، فالإسلام يكرم المرأة ورغم ذلك هي فتنة ويجب ختانها وضربها وأن دورها في المجتمع ثانوي وما إلى ذلك من إجحاف في حق المرأة، فكيف لهم أن يقولوا أن الإسلام يكرم المرأة بعد كل هذا التجاوز؟!..قِس على ذلك مسائل أخرى جميعها إشكاليات تراثية وفقهية لها تجليات سياسية واجتماعية في وعي الجماعات، فلو كانوا بحق يريدون تسويق صورة الإسلام السَمِحة فكان عليهم أن يبادروا بالنظر في التراث، وأن يقبلوا الاجتهاد في حقه، عدا ذلك فسيظهر من سلوكهم ما تمتعض منه الجماهير، ويعرفون أن ما تروجه الجماعات الدينية ليس هو الإسلام الصحيح..

هم وقعوا في هذه الأزمة وأصبحوا بين طرفي كماشة ،من جهة الجماهير والمثقفين، ومن جهة الأحزاب وأرباب السياسة، فجهلهم بالتراث وانسياقهم وراء التقليد الفج أثّر على وعيهم بالمفاهيم العصرية، وعجزوا عن تكوين فكرة واقعية

عن الدولة الحديثة، ولمن يريد التأكد من وضوح هذه الأزمة لديهم فليُراجع ما حدث معهم من صدام مع مؤسسات الدولة التنظيمية والخدمية، فلو كانوا يفهمون ما هي الدولة ما كان لهم أن يصطدموا معها..هم بكل الأحوال كانوا ضد الدولة العصرية من كل الجوانب، ومفهومهم عن الدولة لا يتسق مع كونها جمهورية ديمقراطية دستورية، فهم يريدونها دولة دينية تحل فيها المحكمة الشرعية محل المحكمة الدستورية،وهذا يفسر صدامهم الفاضح مع هذه المحكمة التي وحسب آلياتها ووظيفتها اصطدمت مع أحلام الجماعة التي رأت في الدستور والمحكمة المختصة به عائقاً أمام تكوين الحكومة "الإسلامية" التي بشرنا بها كبار مفكري الجماعة في عصر التبشير بالمشروع المسمى"بالإسلامي".

أصبحنا في الأخير أمام فكرة مغلوطة أرادت تحقيق أهداف، وكلما ظهر عجزها عن تحقيقها لجأوا للتعليل بأسباب ميتافيزيقية، وغضوا الطرف عن المكون الأصلي للمشكلة وتأخرهم بل وعجزهم عن تحقيق هذه الأهداف، هذا المكون كان ينبغي أن يمس جدار المعرفة لا جدار الدين، فالمعرفة لا حدود لها بينما الدين يناقش جانباً أو عدة جوانب معرفية بعضها أصل، وهو مع ذلك لا ينفتح على كافة المعارف، فظن هؤلاء أنه وبالدين وحده يستطيعون إقامة مشروع سياسي وديني متكامل ..وهذه دروشة لا علاقة لها بالواقع، بل الدين نفسه يرفضها، كون الدين بالأصل يحض على التوسع في المعارف والعلوم، ولكنه لم يناقشها ولم يتعرض لها لا أصلاً ولا فرعا.

فالنظام الديني يتطلب المعرفة بأحوال الناس لإنزال الفقه عليهم، وإلا فسيكون الإفتاء المعلوم على أشياء مجهولة، كيف يُفتي الرجال في أحوال النساء وهم يجهلون مشاعر الأنثى وتكوينها الفسيولوجي والفكري؟.. كيف يُفتي البعض ممن فتح الله عليهم بالمال في أحوال الفقراء؟..بل كيف يُفتي الفقير في أحوال الأغنياء؟...وهكذا..نحن أمام معضلة شاملة تسببت في تكوين رواسب وأحقاد ومظالم شتى..إن تنظيم هذه المسائل هو من صميم المعرفة، وهي عماد من أعمدة

النظام الديني والذي يُقصد به النَسَق الفكري لا النظام السياسي، فثمة فارق بين تجارب الحُكم السياسية وبين علاقة العبد بربه، وكما أشرنا من قبل بأن الفصل التام بين الدين والدولة هو ضرورة أخلاقية تفرضها معايير الدين، وأن الخلط بين الدولة والسياسة هو الذي يُنتج هذا التعارض واللبس لدى العديد ممن تعلقوا بالألفاظ على حساب المقاصد.

في هذه الأيام لا تجد الإخوان رفضوا شيئاً في السابق إلا وقبلوه...فالغاية تبرر الوسيلة، رفعوا شعارات دينية فوق منصة رابعة العدوية واليوم استبدلوها بشعارات وطنية، رفعوا أعلام الإخوان والقاعدة في بداية التظاهرات واليوم رفعوا أعلام مصر، قدموا إنشاداً فنياً فوق منصة الاعتصام دون موسيقى..اليوم لم تعد تفارق الموسيقى والأغاني الوطنية المصرية ساحة الاعتصام، هو تكتيك مُدبر الهدف منه الوصول إلى أكبر شريحة ممكنة تساعدهم للخروج من هذا المأزق، وهو تكتيك يُشبه ما كانت عليه الجماعة قبل ثورة يناير وبعدها إلى أن استلم الإخوان السُلطة.

الغريب أن أبناء الجماعة يُلاحظون هذا الشئ ويفعلونه دون إنكار، بل أجزم أن من سأل عن ماهية ودوافع هذا التغيير هم أقلية نادرة غير مهتمة بمثل هذه التجاذبات، كأنه تغييب كامل للعقل وتخدير عام للوجدان، وحشد عاطفي تجاه قضية محددة يُراد لها أن تأخذ دور البطولة بأي ثمن..نعم هي أحوال القطيع بلا شك، تجلياتها في صعود كبراء التنظيم على أكتاف بل ودماء الصغار، ولا فرق لديهم بين التضحية بالمال والجهد وبين التضحية بالنفس، فهم يكذبون عليهم ويعدونهم بالجنة في سبيل عودة الرئيس المخلوع، ولم تصحو ضمائرهم يوماً وتستفيق على كارثة تشويه الدين وجعله محطاً للرغبات والمصالح، لعلها تكون عقاباً لذنوب الماضي..الله أعلم.

في مثل هذه الأيام منذ عام كان الشعب ملتفاً في معظمه حول القيادة الإخوانية الجديدة، بل كل من كان يرفع نداء التحذير من الإخوان يجد من يردعه قائلاً هؤلاء ظُلِموا في الماضي وعلينا أن نعطيهم فرصتهم، وطِبقاً لقاعدة خير وسائل الدفاع هو الهجوم قاموا على الفور بتسليط الكشاف على رموز النظام السابق في محاولة لشطينته على أمل الحشد للإخوان،حدث ذلك بالتوازي مع حملات إعلامية منظمة وأخرى عبثية لتشويه رموز المعارضة الوطنية والثورية، وقد نجح الإخوان في ذلك عبر سلاحهم الديني الفتّاك، فكانت منابرهم الإعلامية تخلط بين الموقف السياسي والموقف الديني، فشاع بين الكثيرين أن كل من يعارض الإخوان والرئيس مرسي هو مشكوك في دينه.

انتقلت هذه الأزمات إلى كل الأبواب وطرقتها لتُعلن عن استفحال الأزمة ودخولها بيوت المصريين، فغضب الأخ من أخيه، وقاطعت الأخت أخيها، فقط بمجرد هذا الموقف السياسي والذي نجح بفضل الشيوخ أن يقلبوه من كونه صراعاً سياسياً على الحُكم إلى صراع ديني على الفضيلة، وقع الشعب أسير لمثل هذه النزعات الفاشية التي كانت تتوسع لتشمل الانتقال إلى المراحل التالية من التهديد بالقتل علانيةً دون محاسبة، ولما لا وقد سيطر الإخوان على النيابة وحاولوا فرض سيطرتهم على القضاء، فكان عملائهم في النيابة حِصناً منيعاً يحمي الإرهابيين والمتطرفين من كل صاحب حق، هددوا بقتل الإعلاميين والفنانين على تنوعهم، ولم يُجهدوا أنفسهم في حصار هذه النزعات الفتّاكة التي تُنبئ بمستقبل تغمره الحروب الأهلية حتى يقضي على الشعب والبلاد.

كان لِزاماً على القوى الوطنية والمدنية أن لا تكسل في سبيل تحقيق الاستقرار والعدالة، فشنوا غارات جماهيرية بأسلحة لا تقل فتكاً عن أسلحة الإخوان، وساعدهم في ذلك عنصرية أبناء الجماعة وأداء قياداتهم الردئ، فمن محاسن الصُدف -والتي دفعت لزيادة الحشد- أن الإخوان كانوا فقراء في إدارة الدولة، ولم يكن لديهم رجل دولة واحد يستطيع أن يجمع الشتات ويُهدئ من الأوضاع، أو

أن يتخذ قرارات تحد من ظاهرة فوبيا الإخوان في الشارع، ربما يظن البعض أن هذا كان عقاباً إلهياً للجماعة المارقة التي ستفعل كل شئ كي تحفظ سلطتها وسيطرتها على مؤسسات الدولة، حتى لو كان ذلك بالحرام لا يهم فالغاية تبرر الوسيلة، وما اجتمع الإخوان في مكان إلا وكان الرب معهم، وما غضبوا على جماعة إلا وغضب الله عليهم!

هكذا كان مصير من تجبّروا على العباد وظنوا أنهم السادة وغيرهم العبيد، فالإنسان منذ اخناتون وسبارتاكوس ومارتن لوثر كينج إلى ثورات العمال لم يختلف ، كان ولا يزال منذ عهود الأنبياء والمصلحين، جميعهم كانوا ثوريون على الاستعباد والقهر والإذلال، فلا يأتي من ظن أن الحق معه ويفرض سطوته على الناس ولا يرى العالَم يرفضه، هؤلاء من أعمى الله قلوبهم مثلما أعمى أبصارهم بذنوبهم، لقد فعلوا الكبائر والمُنكرات ولم يُراعوا لله أي حُرمات وهم يتلون الكذب والإفك على مسامع البشر، لقد ملّ الناس تنطعهم في الدين ولم تعد أي جرعات دينية تُجدي في توجيه البوصلة إلى مسارها الصحيح، لقد أحدثوا ظاهرةً يعلوها الكذب والمُجوج فلا مدارس قد دخلوا ولا دينٍ قد تعبدوا إلا بقلوبٍ تملأها الكراهية والبُعد عن الناس.

طوال ثمانين عاماً - عَمر الجماعة-وهم يصرخون من لوعة الظلم والاضطهاد، فصدقهم الطيبين والأغبياء، كانوا يرمون أحجار الدين في بحر العواطف.. وهم يعلمون أن الماء لن يعود لطبيعته حتى تبلغ الدوائر شاطئ النجاة، هم يعلمون أن عواطف الناس كالماء الراكد بحاجة إلى حركة ولو ضعيفة لتحريكه، فما بالنا وهذا الماء قد اجتمع بالتخلف العلمي والعقلي الذي اجتاح مناطق العرب؟..وما بالنا وقد اجتمع ذلك مع فقر وحاجة المصريين؟..لقد صنعوا بيئتهم بأنفسهم وأوهموا الناس أن الفضيلة أن تقف مع المُحتاج حتى يسد حاجته ..وليس بأن تجعله عُنصراً بنّاءاً يُعلي من شأن المجتمع والناس، فقد اعتادوا على أن يكون الإنسانَ لديهم وسيلة

للتنظيم وأهدافه، فإذا ما خرج منهم انتقل إلى "رعاع"الناس ولا يستحق أن يكون إنسانا.

شعورهم بالاضطهاد كشعور ذلك الزوج الذي أحبّ زوجته فقط من أجل الجنس أو المال، ولم يفطن إلى أن الله جعل بين الأزواج ما هو أعظم من الجنس وهي المودة والرحمة والتفاهم، جميعها وسائل كانت في طريق العِشق والشعور بالآدمية حاضرةً في خيال المُبدعين والعاشقين، فلو تكدرت حياته يوماً ثار على امرأته كأنها لم تكن خيرا، وفي أغلب الأحيان تصل الأمور إلى الطلاق ، كل هذا لفقدانه المودة والرحمة ، فهي الكائن الثانوي الذي خلقه الله لرغباته وشهواته!..وهي التي عليها التنازل والاحتواء..فإذا ذهب هذا الكائن ظن بأن لا منجى من الله إلا إلى الناس، فسعى إلى رضائهم حتى يبلغ الأماني، فعرف العُقلاء أنه مادي ولا يرضى إلا لمنفعته فطردوه ونبذوه حتى ركلوه بالأقدام، فخلا بينه وبين نفسه يناجي ربه، ياربي لماذا قومي لا يسمعون، لماذا هم ضالون عن الحق أني لا أريد بهم إلا الخير..فكان ممن كذب على نفسه، أنه لو أراد للناس خيراً لأحبهم، ولو أحبهم ما كان له أن يطعن في دينهم وضمائرهم بمجرد الشُبهات أو الظنون.. أو أن يجعلهم وسائل لرغباته وشهواته.

نقد لفكرة(أستاذية العالم)عند جماعة الإخوان

تدور فكرة أستاذية العالم عند جماعة الإخوان في أنها المرحلة الأخيرة في الإصلاح، والترتيب هو كالتالي ..أن يُصلح المرء من نفسه ثم أسرته ثم مجتمعه ثم أخيراً العالم...وهذا الأخير هو ما يعرفونه(بأستاذية العالم) والمعنى هو أن يكون الإخوان هم القدوة والقِبلة التي يجب أن تتجه إليها كافة الأنظار لتتعلم منها وتنهل من علومها وتجاربها..وهذه الفكرة هي فكرة فاسدة وضد الشريعة الإسلامية ومنهج حياة البشر بالعموم...لأن الأستاذية –كما يفهمونها- هي أن تكون هناك

سلطة مركزية تدير شئون العالم وتتحكم في مُدخلاته ومُخرجاته..فهم يدعون للأستاذية ومعها فكرة الخلافة الإسلامية، والنتيجة أنهم يدعون لسُلطة مركزية لا تسمح بالتنوع ولا بالتعدد كما هي شريعة الله في خلقه ، فالنظرية والتطبيق يرفضون هذا النَهَج في بناء الحضارة فمعنى أن تكون هناك حضارة واحدة تتحكم في هذا العالم هو أمر يشيع الفوضى والظلم بين أرجائه، لأن التعايش يبدأ من التعدد ثم قبوله، وهذه النظرية موجودة -كمبادئ- في القرآن الكريم في قوله تعالى:

١-(لِكُلّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَآءَ اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمّةً وَاحِدَةً)

٢- (وَلَوْ شَآءَ رَبّكَ لَجَعَلَ النّاسَ أُمّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)

لذلك فالتعدد هو حالة افتراضية خلقها الله لصالح جميع البشر ، لأنه العليم بهم من أنفسهم، والتجارب أثبتت أنه ما من قوةٍ على ظهر الأرض حاولت أن تفرض رأيها وأسلوب حياتها إلا وارتكبت من الفظائع والمظالم ما شاء الله لها أن تكون..هذه الرؤية تنطبق على كل من يريد أنه يفرض رأيه وأسلوب حياته أو أن يفرض دينه ومذهبه على الناس..يدخل في هذا الفساد كل من حاول تعميم التجربة الغربية وكذلك من يحاول تعميم التجربة الوهابية السعودية...وذكرهما –كطرفي نقيض-هو إشارة إلى أن أزمة العالم العربي هذه الأيام تكمن في أنها بين تطرفين..الأول تطرف انفتاحي يريد تعميم التجربة الغربية بحذافيرها..والتطرف الثاني هو الانغلاق على الذات والتقوقع في سراديب كتب التراث الإسلامية لتصور الواقع... وكلاهما مذهبين فاسدين وضد الإنسان والحضارة بالمُجمل.

لو عدنا للشريعة لرأينا أن لها وجهاً إلهياً يتمثل في القرآن وحقيقته، ووجهاً آخر بشرياً يمثل الفهم الإنساني للشريعة وللدين..الأول إلهي مطلق والثاني بشري نسبي، وعليه فنظرية الأستاذية والخلافة في ذاتها هي نظرية نسبية –وليست

مُطلقة-يشوبها العديد من الأخطاء، أما التطبيق فلا يُشترط معه صحة النظرية لأن النظرية قد تكون سليمة والتطبيق يكون خاطئ، فما بالنا وأن النظرية في ذاتها يشوبها العديد من الأخطاء؟..هذا سيُدخلنا في إطار التعرض لجدلية المقصد واللفظ وهي إشكالية كبيرة ليست فقط داخل الدين الإسلامي بل هي في الأديان كافة، والسبب أنها طريقة تفكير وسلوك بشرية بحتة.

للعلّامة ابن القيم الجوزية كلمة نفيسة في هذا الشأن ذكرها في كتابه..إعلام الموقعين عن رب العالمين..قال..(أن الألفاظ ليست تعبدية وأن العارف يقول ماذا أراد أما اللفظي فيقول ماذا قال)..والمعنى أن البشر يختلفون في النصوص إلى فئتين الأولى تنظر في المقاصد وهم العُرفاء والفقهاء والثانية تقف على الألفاظ وهم المقلدين والمرددين...وعليه فإنتاج النظريات بحاجة أولاً إلى اتفاق"مقاصدي" حول النظرية الدينية بالعموم، ومن هذا الاتفاق يجري المرور على التفريعات بالقياس على مقاصد النظرية الدينية.

فرضنا أنه قد تم الاتفاق على مبادئ هذه النظرية الدينية وأن هذه المبادئ هي..(التنوع-السلام-العقل-التجربة)..وهي مبادئ عامة إنسانية في تقديري أن الإسلام ينادي بها جميعاً .

بالاتفاق على هذا المبادئ سنتصور الوضع كالآتي:

١-أن النظرية الدينية تنادي بالتنوع والتعدد..وعليه فلا سُلطة مركزية للعالم ولا حضارة واحدة..فالسُلطة السياسية-أياً كانت-لن تسمح بقوة وعنفوان أي فكرة أخرى غير التي قامت عليها هذه السُلطة، بمعنى أن الإخوان هم أصحاب السلطة المركزية والتي حصلوا عليها عن طريق الدين الإسلامي، فلن يسمحوا بأي فكرة أخرى يهودية أو مسيحية أو إلحادية تهدد وجودهم وأفكارهم..وسيشرعون على

الفور بالتصدي لها محاولين فرض منهجهم بالقوة..ووقتها ستنهار كافة المعايير التي وضعوها لأنفسهم كي يحصلوا على رغبات ورضا الشارع.

٢-أن النظرية الدينية تنادي بالسلام، وبالتالي فهذا السلام يفرض على الجميع عدم التوسع الجغرافي أو المادي أو الفكري تحقيقاً لهذا المبدأ..فالحروب في مُجملها تأتي من الطموح والطمع الإنساني في التوسع والسيطرة بكافة أشكالها..وهذا سيفرض على الإخوان-أصحاب السُلطة المركزية-تجريم وتحريم الدعوة للدين الإسلامي ولكافة الأديان بالعموم، وأن العلاقة ستظل هي علاقة حوار وتواصل تحقيقاً للمبدأ الأول وهو مبدأ التنوع.

٣-أن النظرية الدينية تنادي بإعلاء قيمة العقل، وبالتالي فلا سُلطان على العقل إلا للعقل نفسه، وأن الأديان حينها لن تكون هي الحَكَم..وبالتالي فعلى السلطة المركزية(الإخوان) أن يدعون جميعاً لهذا المبدأ ويتوسعون في تطويره وحمايته..حينها أجزم يقيناً أن السُلطة سترفض هذا المبدأ من جذوره، وهذا لاعتقادهم بأن إعلاء قيمة العقل من شأنه هدم الدين عبر التعرض لقضايا ما فوق العقل ..وبالتحديد الغيبيات وما وراء الطبيعة، وهذا الاعتقاد خاطئ تماماً، لأن الطرف الآخر لا يهمه غيبيات لا تؤثر في حياته العملية، بل يهمه أن يكون العقل هو سيد هذا الواقع، والغيبيات هي أمور إيمانية لا يهتم بها في حياته العملية...ستكون حينها أم طرفان..سلطة تفكر بالدين ومعارضة تفكر بالعقل...وفي تقديري أن من صنع هذه المفارقة(وهي السُلطة) هو نفسه من يزعم أن الدين يتعارض مع العقل بسلوكه.. وأن أقر مئات المرات أن العكس هو الصحيح!

٤-أن النظرية الدينية تنادي بالتجربة..فالسُلطة تؤمن بأن التجربة أساس لفهم الدين انطلاقاً من أن الفقه وبالتحديد-المقاصد-أتى من التجارب وليس بمجرد النظريات التي تتعارض مع حياة الناس ومصالحهم، أما المعارضة فتؤمن بأن التجربة هي

المعيار الأول للحُكم على الأشياء وعليه فلا عقاب على هذا التجارب لارتباطها بمصالح الناس...السُلطة تنظر للتجربة وتضع لها حدود لا يمكن أن تتخطاها، والمعارضة لا تضع أي حدود للتجربة فلا تجريم للزنا وأن الممارسة الجنسية قبل الزواج وخارج إطار الزواج إن كانت في مصلحة الناس فهي مُباحة، وان التجريم سيخص فقط ما سيخل بطبيعة المجتمع وأهليته في البقاء...هنا سيكون التعارض والذي –عن طريقه-سترفض السُلطة هذا المبدأ.

الآن بعدما تصورنا الوضع بكل صراحة نحن أمام سلطة مركزية ستفرض رأيها بالقوة، وأن هذه السُلطة لن تسمح بأي معايير وضعتها لنفسها كأساس لصحة النظرية الدينية..وبالتالي فستضع نفسها رقيباً وحارساً لفهمها هذه المبادئ..ومن هنا سيأتي الإفساد..لأن الشريعة الإسلامية تحذر من منطق فرض الرأي بالقوة وتضع هذا السلوك دائما في سياق الحديث عن الكفار والمجرمين، وأن هذه الفئة هي التي تفرض رأيها بغض النظر عن سلوكها الذي من المفترض أن يكون هو القدوة، فالأنبياء لم يأتِ إلينا من خبرهم أي إشارة بأن مجتمعاتهم كانت صالحة،وإلا فما هي مهمة النبي إذاً؟

شئ آخر أنه عندما نقول بأن الإخوان لا يعتدون بصحة إسلام من يرفض "فهمهم"لتطبيق الشريعة فلا نقول ذلك من فراغ، أولاً لأن سلوكهم قد ظهر منه ذلك عبر تعميم نظرية المؤامرة بين الأتباع، وثانياً عبر الربط –الغير أخلاقي-بين الرغبات السياسية وبين الدين، فأصبح كل من يرفض تعيينهم(النائب العام)إما عميلاً أو مشكوك في دينه!

ولو نظرنا إلى كُتب الإخوان والتي تعد-في فهمهم-أرقى ما أنتجه العقل الإخواني من التسامح والعقل سنرى بدون جدال أنه كتاب..(دعاة لا قُضاة)..للمرشد السابق حسن الهُضيبي، والمُشكلة أنه كتاب يصدق عليه المَثَل المصري..(جه يكحلها عماها)..فأفسد من حيث أراد الإصلاح..الكتاب كُتِبَ خصيصاً للرد على جماعات

التكفير التي ظهرت في سجون الحقبة الناصرية، فمن الطبيعي أن تعلوه لغة الهدوء وتوظيف النصوص الدينية التي تدعو إلى التسامح وخلافه.

تأملوا معنا ما قاله الهضيبي وسنحاول عرض ما أُحكِمَ من قول الرجل -حرفياً- لئلا يتهمنا أحد بالانتقائية والترصد، وما يهمنا في هذا الشأن هو موضع الشاهد وهو كيف ينظرون إلى الدولة والشريعة وتلك الثُنائيات التي لا تنتهي...قال الهضيبي:

-(إن الحكومة الإسلامية "أو الإمام الحق" إنما هي الحكومة التي تعتنق الإسلام ديناً وتقوم على تنفيذ أحكام الشريعة وحراسة الدين)..

-(أحكام الشريعة هي التي تأمرنا بحراسة الدين والذب عنه والتمكين للمسلمين في الأرض وصَدِّ العدوان الذي قد يقع عليهم، والعمل على نشر دعوة الله والقتال لتكون كلمة الله هي العليا (وَقَاتِلُوهُمْ حَتّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدّينُ للهِ)..

-(كما يتعين أن يكون الإمام رجلاً: لقول رسول الله ــ عليه الصلاة والسلام لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة)..

-(لا مراء أن الأمة مأمورة أن تنقاد للإمام المسلم الذي يقيم فيها أحكام الله ويسوسها بأحكام الشريعة ووحدة الصف وتماسك أفراد الأمة بعضهم ببعض والحرص الشديد على اجتماع الكلمة ومنع الفتنة من صفات المؤمنين البارزة حتى إن الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ ليقول: "من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه).

نقد لرؤية الهضيبي:

١-لفظ(حراسة الدين) المذكور أعلاه موجود في فقه الجماعة بعدة تجليات عُرفت بالولاء والبراء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة البدع وخلافه..فبمجرد أن تكون هناك سلطة مركزية تعمل على(حراسة الدين)هذا يعني أنها ستحارب أي مبتدع أو منحرف أو عدو للدين..وبالتالي فهي ستحارب أي مخالف(لفهمها)للدين كنتيجة طبيعية لما قلناه في السابق بأن فهم البشر للأديان نسبي، وعليه كان يجب تحرير هذه الأشياء أولاً..(الحكومة الإسلامية-أحكام الشريعة-حراسة الدين)..ولكن لم يحدث ذلك لاعتقادهم بأن المسألة بديهية وهو أمر غير صحيح إطلاقاً والخلاف فيها كبير.

٢-لا يوجد شئ إسمه(حكومة إسلامية)في ظل دستور يسمح بالمواطنة والتعدد والمنافسة الحزبية، وهذه إحدى تناقضات الوعي الإخواني بوجهٍ عام، حيث أنهم يؤمنون بالدستور وبفكرة المواطنة والمنافسة،ومع ذلك يقولون بأن تكوين الحكومة الإسلامية فرض واجب، فماذا سيفعلون مع منافسيهم ممن يرفضون أفكارهم ومناهجهم أصلاً..هذا سيضعهم أمام خيارين اثنين ، الأول أن يفرضوا "رؤيتهم" للشريعة على كافة الأحزاب المنافِسة كي يُحققوا الحكومة الإسلامية.. وبالتالي سيرفضون منافسة هذه الأحزاب من الجذور وسيلغونها أو يطردونها من الحياة الحزبية العامة، أما الثاني فهو أن يُعيدوا النظر في تصورهم للدولة وللشريعة وهذا –في تقديري- أنه أمر غير ممكن مع الجماعة الحالية، فهي تتحالف مع "الراديكاليين" في مواجهة المعارضة بالعموم،فأصبحت النتيجة أنهم يدعون إلى المواطنة والتعدد ولكن ينقضونها بفهمهم للشريعة وسلوكياتهم وتحالفاتهم المشبوهة، فخرجت مفاهيمهم جوفاء لا دلالات لها على أرض الواقع ..إلا كما قال الدكتور عبدالحليم قنديل من قبل أن الإخوان فعلوا كل شئ في الحُكم عدا الشريعة.

٣-أنهم يشترطون لتحقيق معنى(الحكومة الإسلامية) هو أن يكونوا جميعاً متدينين بالدين الإسلامي..فلِما كان قبولهم بولاية المسيحي في الدولة؟!..هذا يعني أنهم لن يقبلوا بولاية المسيحي إذا ما أيقنوا بأن الشعب قد دان لهم بالولاء وسيسنون

التشريعات المُجرّمة والمُحرّمة لولاية المسيحي تحت دعوى الاستجابة(للرأي العام).

٤ -أنهم يشترطون لتحقيق معنى(الحكومة الإسلامية) أن يكون الحاكم رجلاً، ونفس ما ينطبق على ولاية المسيحي ينطبق على ولاية المرأة.

٥ -وهو أخطر ما في رؤية الهضيبي، أن الخارج أو المعارض (للإمام الحق أو الحكومة الإسلامية) هو خارج عن وحدة الصف بالضرورة ويجوز قتاله أو قتله، وعليه فالهضيبي لا يؤمن بوجود المعارضة (لحكومته الإسلامية)..وهذا يفسر معارضتهم لكافة أنظمة الحُكم السابقة وهي أنها لم تكن معارضةً للظلم الواقع أو للتقصير البائن بل كانت معارضةً قوامها أن السُلطة ليست(إسلامية) وعليه فيجب الخروج عليها ومعارضتها وتحويلها كي تكون إسلامية.

في النهاية سنرى أن الإخوان -وعن طريق أعظم كُتبهم الفكرية- - يرون مفاهيم(الحكومة-الدولة-السلطة-المعارضة)برؤية دينية بحتة، وهذه الرؤية تتناقض وتتشاكس مع طبيعة الدولة الحديثة، لذلك لا أستغرب حربهم الضروس ضد مؤسسات هذه الدولة لتحويلها إلى مؤسسات تابعة بدءاً من القضاء إلى الإعلام إلى الجيش إلى الشُرطة ..إلخ...ثم حربهم الضروس الأخرى ضد المعارضة وتشويه رموزهم وتكفيرهم لبعضهم بمجرد الاعتراض على منحى التمكين الذي سلكته الجماعة منذ أن اعتلت كرسي السُلطة، فلا يوجد مؤمن بطبيعة هذه الدولة يحارب مؤسساتها بدعوى أنها فاسدة أو منحرفة أو ما إلى ذلك من مزاعم الغرض منها هو التشويه والتمكين فحسب، وليس بمجرد فساد الواحد يفسد الجميع، إنما كان هذا سلوك الجُهال والمتعصبين أن ترى في ثقافتهم التعميم، والتطرف في الرأي وطريقة عرضه.

بعد هذه الرؤية لا أشك مثقال ذرة في أن المبدأ الإخواني المعروف لديهم ب(أستاذية العالم)لا يقوم على أساس مفهومي واضح، بل كان معياره الأول والأخير هو السُلطة، حتى أنهم يؤمنون بأن فوزهم بالسُلطة هو ثمرة جهودهم في الماضي، وأن الله قد كافئهم بهذه السُلطة "لإخلاصهم"لله ولمجتمعهم..وبالتالي فمن الطبيعي أن نرى فقر منهجهم وقلة حيلتهم في التعامل مع قضايا ومشاكل المجتمعات، بل أكاد أجزم –وكما قلت-في الماضي أن الإخوان-كفكرة إصلاحية معارِضة-انتهت عملياً يوم أن صعد الرئيس مرسي إلى سدة الحكم في مصر، وأن الموجود من الجماعة الحالية سواء من حزب أو جماعة أو جمعية هي مجرد كيانات سلطوية ستأخذ عمرها الافتراضي ثم ستذوب إما في المجتمع وبالتالي تنتهي إلى غير رجعة وتُصبح من الزمن القبيح..أو ستذوب إلى كيان جديد يُراجع مفاهيم وأفكار وسلوكيات الكيان القديم..وربما هو الآخر ينجح أو يفشل، أما الكيان الحالي فنجاحه مرهون بجهل وفساد العالم.

الإسماعيليون والإخوان..مقاربة سلوكية

في دراسة موجزة للمستشرق الإنجليزي برنارد لويس يرى أن الشيعة الإسماعيلية هي أكثر فرق الشيعة ذوات النزعة الثورية، وقال في كتابه.."الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام"..أن الإسماعيلية امتلكت من القوة في القرن العاشر الميلادي ما يجعلها أن تعلن عودة الإمام الغائب وتحكم الشمال الإفريقي بأكمله، وقد حدث ذلك وأعلن الإسماعيليون ولادة دولتهم الناشئة تحت اسم.."الدولة الفاطمية"..التي يحكمها المهدي ...ولم تقف حدود تلك الدولة على الشمال الإفريقي بل تخطته إلى حُكم سوريا في الشام والحجاز في شبه الجزيرة، أي أن الشيعة الإسماعيلية كانوا يحكمون كافة ربوع المسلمين بما فيهم مكة والمدينة، ولم يفلت من براثنهم سوى العراق وإيران اللتان كانتا تحت سيطرة الدولة العباسية في بغداد والسلجوقية في إيران، وكلتا الدولتين في العراق وإيران كان يحكمهم الأمراء

السنة ..مما يُوحي بأن الخلاف بين الإسماعيليين والعباسيين والسلاجقة كان له بُعداً طائفيا راسخا.

حقيقة لابد من قولها أن الشيعة الإسماعيليين كان ظهورهم هو الأبرز طوال تاريخ المسلمين، ولم تكن للشيعة الإمامية قوة معروفة إلا بعد زمان الصفوي الإيراني الذي أنتج أول دولة شيعية إمامية قوية في تاريخ المسلمين، فقد سبق دولة الصفوي دولتين إماميتين هما الحمدانية في القرن التاسع والبويهية في القرن العاشر، ولكن كلاهما كان به من الضعف ما أنهى سطوتهما بسرعة...يكفي أن نعلم بأن السلاجقة السنيون هم الذي قضوا على البويهيين الشيعة في العراق، وفي تلك الفترة-أي في القرن العاشر والحادي عشر الميلادي-كانت الخلافة العباسية في سنواتها الأخيرة، ومع احتضار العباسيين إلا أن شعوب المسلمين كانت تبحث عن قائد يجمع صفوفهم بعد هذا التشتت الطائفي الذي ضرب المنطقة وأفرز بعد ذلك قدوم الحملات الصليبية والتتارية لتدمير واستهلاك المسلمين.

ربما لا يعلم البعض أن الطائفية هي التي ضربت أوصال المسلمين في هذا الزمن حتى أوهن ذلك جسدهم، وسمحت للصليبيين والتتار أن يعيثوا في الأرض الفساد، وكأن التاريخ يُعيد نفسه الآن، فما حمل صلاح الدين على حرب الفاطميين وما حمل السلاجقة على حرب البويهيين وما حمل الفاطميين على حرب الحمدانيين إلا هذا العداء السني الشيعي الموروث، ذلك العداء الذي يطل برأسه الآن في صورة الجماعات السنية والفصائل الشيعية التي تحشد كل فرقة أتباعها لزرع الكراهية في القلوب...حتى أن الدولة الفاطمية -التي قضت على الدولة الحمدانية- كان نظامها الديني إسماعيلي ، بينما الدولة الحمدانية كانت شيعة أمامية!..وهذا يعني أن العداء لم يكن مقصوراً على السنة والشيعة وحدهم، بل في كل مذهب يحاربون بعضهم سعياً وراء السلطة...فلا يظن جاهل أن قضية السلطة هي التي ستوحد المسلمين، فالشقاق يأتي منها والكراهية تنبعث من دخانها المشئوم.

كان الإسماعيليون في صراعهم الثوري يعتمدون على إزاحة النظام السياسي القديم ثم تنصيب الإمام المختار، وهم في ذلك يتشابهون مع الجماعات الدينية التي يظهر من رؤيتهم للسلطة على أنها الإمامة المقدسة، فما حمل الجماعات على تقديس الرئيس المصري المعزول محمد مرسي فوق منصة رابعة العدوية هو الذي حمل الشيعة الإسماعيليون على الثورة ضد الأمراء والخُلفاء، وهو الهدف الذي يخلقونه باستمرار ويتجدد بتجدد الزمان...هذا الهدف متوحد بين ثورة الإسماعيلية وثورة تلك الجماعات المعاصرة، أن يتم نشر العدل والرخاء بدلاً من الظلم والاضطهاد، أن يساوي الحاكم بين القوي والضعيف، ولكن ما جعل الإسماعيلية تفشل في تحقيق هذا الحُلم هو ما أفشل تلك الجماعات في أول اختبارٍ لها في حُكم مصر، فالسلطة مختلفة في حقائقها بين الواقع والتنظير، بين البرامج والشعارات، ويظهر أن الفشل بعد الثورة يكشف عن عدم وجود برنامج إصلاحي حقيقي يبتعد عن إثارة العواطف .

الفارق بين ثورة الإسماعيلية وثورة تلك الجماعات الدينية المعاصرة هو أن الإسماعيليين كانوا يبنون خطابهم المقدس ومبايعتهم للحكام على أساس القرابة للنبي ، بينما تبني تلك الجماعات خطابها السياسي على أساس التقديس للفرد ضمن الجماعة وإعلاء الذات كونها تقترب من فهم النبي للإسلام وتحقير الآخر كونه ناقص العقيدة وفقير العلوم وبحاجة دائمة لمُرشد يهديه إلى الحق...ولكن ما يميز الإسماعيلية عن الجماعات هو أن الإسماعيليين كانوا يعشقون العلوم العقلية والعرفانية ، فظهر منهم الفلاسفة واستطاعوا مجادلة ذوي الأديان والعقول، ونجحوا في صياغة مذاهب عقلية خاصة بهم ، وهذا الوضع أكسبهم شيئاً من المنطق، بينما الجماعات فشلت فشلاً ذريعاً في اكتساب هذا المنطق كونهم ينظرون لتلك العلوم العقلية نظرة تقليدية خالية من الإبداع وروح المنافسة، فشاعت بينهم نزعات الوصاية، وهذا الشيوع هو ما أنتج لديهم التفرق لأكثر من عشرات بل مئات الجماعات كل واحدة تختلف عن الأخرى إلى حد التكفير.

على جانبٍ آخر فالنظرية الثورية تشمل أن لكل حاكم قوي وظالم معارضة ضعيفة، وسينتج عن ضعفها ميولاً لكتم عقائدها وآرائها خشية الانتقام، وهذا ما نسميه بعقيدة.."التقية"..وتلك لم تكن مقصورة على المذهب الشيعي –كما هو مشهور-بل هي ممتدة في المذهب السني وأشهر من استعمل التقية هي جماعة الإخوان المسلمين، وهي مع تقيتها لا تتشابه مع نظائرها من بقية الجماعات الإرهابية التي جهرت بعقائدها وطرحت رؤاها الحقيقة في الإعلام...فالحذر والاحتياط هي السمة الأبرز للشحن الثوري الذي يستغل ضعف هذا الحاكم ليُعلن الثورة عليه، حدث هذا مع الإسماعيليين من قبل وقد حدث مع جماعة الإخوان، فالإخوان كانوا يكتمون الثورة بل في أدبياتهم الخاصة أعلنوا أن جماعتهم ليست ثورية، بل هي إصلاحية دعوية، ثم تغير الحال بعد ثورة يناير من العام ٢٠١١ فأصبحوا يرفعون شعار الثورة كلما شعروا بالحاجة إليه، ويمكن استطلاع ذلك من أحوالهم اليوم كانوا يكرهون الثورة وهم في سدة الحكم ثم رفعوا شعار الثورة بعد أن عزلهم الجيش .

وهم في ذلك يكررون المشهد الثوري الشيعي الذي يرفع لواء الثورة حين يحكمهم الغريب، بينما يحاربون الثورة إذا جاءت من الخصوم.

لا ننكر أن الإسماعيلية والشيعة بالعموم تعرضوا لاضطهاد وكذلك الإخوان وبقية الجماعات، وقد حدث ذلك نتيجة لعدائهم للسُلطات، فاضطروا إلى إخفاء عقائدهم خوفاً من بطش الحكام، وكما أن للإسماعيلية غُلاة ومعتدلين فللإخوان والجماعات غُلاة ومعتدلين، وحين تأتي الأجواء بالحرب على الأسس العقدية للمذهب ينشط كل فريق لترويج أفكاره عبر نظرية المؤامرة...فمن السهل على كل فريق أن يروج لأفكاره داخل غلاف من المؤامرة لا يراه إلا العاقل والشكاك، بينما أغلب الناس لا يرون هذا الغلاف وهم يُسلّمون في العادة إلى أن الأزمات هي نتيجة لمؤامرة الأشرار على الأخيار، وبما أنهم يعتقدون في أنفسهم الخير –كعادة كل

الناس-فكل مخالف –حينها-هو من الأشرار، لذلك كلما تفشو نظرية المؤامرة في مجموعة من الناس كلما يزداد معها معدل الكراهية للجميع.

من الجماعات الشيعية الإسماعيلية والتي اشتهرت بقوة التنظيم هي جماعة الحشاشين ، ونستغرب كيف روى المؤرخون أخبارهم بالذم والقدح واتهامهم بأبشع التهم -منها الزندقة والإلحاد- ومع ذلك لم نقرأ لرؤسائهم كتاباً واحداً يؤكد هذه الصورة ، لن نخوض في عقائدهم فكافة أخبارهم جاءت من الخصوم و يصعب معه الوقوف على حقيقة الجماعة العقائدية وتقييم موقفها الصحيح من الدين...ولكن ما أجمع عليه المؤرخون أن الحشاشين كانت تمتلك أقوى تنظيم سري وفرقة اغتيالات سياسية في الشرق الأوسط برمته، حتى أنها قتلت أشهر وزراء السلاجقة في التاريخ وهو الوزير.."نظام الملك"..وبمجرد ذكر السلاجقة يتبين لنا حقيقة صراع الحشاشين مع السلاجقة وكيف أنه كان صراعاً طائفياً بين السنة والشيعة..

نقطة هامة يجب التركيز عليها فالمناهج التعليمية العربية لم تتعرض للخلفيات العقائدية لتلك الدول، فنحن ندرسها وندرس تواريخها ولكننا في عُزلة تامة عن الأسباب الحقيقية للصراع، وفي تقديري أن ذلك من أسباب شيوع التطرف الديني بأشكاله المختلفة التي أغفلت علاج هذا الداء.

نعود إلى الحشاشين

يمكن القول أنه وبمجرد انتساب الحشاشين للإسماعيلية يصلح معه القول بأن الحشاشين كانت تمتلك مجموعة من المفكرين والعُقلاء الذي أثروا مناطقهم بالحُجّة والبيان، وعلى عكس الكثيرين فأعتقد أن للجماعة رؤية خاصة للكتاب والسنة لم تختلف كثيراً عن ما هو شائع في حينه، ونظراً لانتشار تلك الفرقة في سوريا وانضمام الجماهير لها يمكن القول أنها اكتسبت نفس صفات الشيعة الفكرية والسياسية ،وأهم هذه الصفات هو تميزهم بالعقل والجدل وإبداعهم في النظريات

الكونية والعرفانية...ذلك لأن أهل هذه المناطق- التي يسكنها الحشاشون -كانت تزخر بالعلوم والفلسفات المتعددة سواء إسلامية أو مسيحية أو يونانية،بينما لو كانت بُعِثت في جزيرة العرب فما الذي كان يُجبرها على احتراف تلك العلوم والبدو لا يمتهنون سوى الشعر والخيال الرقيق؟..قد يكون ذلك حجة مقبولة للذود قليلاً عن تلك الفرقة التي لم يصلنا من أخبارها سوى الذم والقدح، بينما نغفل عن أشباهها في زماننا المعاصر فنُخطئ التقدير.

الفكر الإسماعيلي متأثر بالرؤية الثورية لآل البيت عموماً، وفي هذه لا يختلف عن بقية الشيعة الذين يقدسون ثورتي الإمامين الحسين وابن الحنفية في القرن السابع الميلادي، ولا يظهر من بواكير تلك الثورات إلا ظهور بعض غُلاة الشيعة كنتيجة للقمع السياسي في تلك الفترة، فكان من الطبيعي أن يظهر بعض غُلاة الإسماعيلية ويقولون بالتناسخ وتأليه الأئمة وبقية صنوف الإلحاد، غير أن هذا الغلو لم يستمر إلا في النصف الأول من القرن الثامن، بعدها ظهرت آراء شيعية عامة معتدلة ..تحارب هذا الغلو العقدي الذي أصاب الكثير ممن ينتسبون لآل البيت.

في تلك الفترة كان يعيش الإمام جعفر الصادق إمام أهل السنة والشيعة معاً، وقد كان لحضوره الأثر في نزع قيم التطرف إلى بواكير العمل الاجتماعي والسياسي المعتدل، وكذلك نشر أتباعه آراؤه الفقهية التي شكلت بعد ذلك فقه أكبر فرقة شيعية في التاريخ وهي فرقة الإمامية، ولكن بعد وفاة الإمام دب الخلاف بين الشيعة حول الإمامة، فاتجهت الأقلية إلى تنصيب إسماعيل وهو الابن الأكبر للإمام الصادق وسموا بالإسماعيليين، واتجهت الأكثرية إلى تنصيب موسى الكاظم وهو الابن الأصغر للإمام الصادق وسموا بالإماميين.

من هنا بدأ الافتراق يحذو حذوه مرة أخرى ولم يعترف كل فريق بإمامة الآخر، غير أن برنارد لويس يرى أن تنصيب الأكثرية لموسى الكاظم ربما كان لتطرف إسماعيل، وهذا يعني أن الإماميين كانوا أكثر اعتدالاً في الرأي من الإسماعيلية

وفي ذلك شيءُ من الصحة، فغالب الجماعات والفرق الشيعية المتطرفة خرجت من رحم الإسماعيلية...نتج عن ذلك أن اشتهر الإسماعيليون بالعمل السري خشية أن ينتقم منهم أتباع موسى الكاظم أو السنيون الذين يملكون أراضٍ وسلطاتٍ واسعة ، أي أن الإمامية لم تكن بحاجة إلى العمل السري نسبةً إلى اتجاه معظم الشيعة إلى هذا المسلك، يعني أنه وكلما أقصى البعض أفكاراً سنراها تعود خلسةً تحت الأرض، وبإدمان هذا المنهج يُصبح من العسير أن تتغير تلك الأساليب السرية إلى أخرى علنية.

اتجه الإسماعيليون بعد ذلك إلى العمل السري كما سلف، وطبيعة هذا العمل قائمة على المظلومية بالأساس، فلو لم يشعر الأتباع بالظُلم والحَنَق ما كان لهم أن يحشدوا الجماهير، فمن وِجهة نظرهم أن أتباع موسى الكاظم قد اغتصبوا منهم الإمامة، وأن الدين يفرض عليهم عودة الإمام الشرعي لسيادة الحق والفضيلة، ذلك أن الإمام لدى الشيعة بالعموم هو بالنص، وجميعهم اتفقوا أن هذا الإمام الشرعي هو من نسل سيدنا عليّ ابن أبي طالب، ولكنهم اختلفوا بعد وفاة الإمام السادس جعفر الصادق...ومما صاحب ثورة الإسماعيلية هو لجوئهم إلى العقل والعاطفة معاً.. في إشارة إلى أن الثوريون قديماً وحديثاً كانوا يُلهبون حماس الجماهير بالعواطف ،ومع ذلك ترى أغلبهم فقراء معرفياً ولديهم أفكار ساذجة وسطحية عن شكل الدولة وإدارتها، ربما كان لتميز الإسماعيلية في العلوم العقلية هو السبب في نجاحهم في المغرب العربي وتكوين أكبر وأشهر دولة إسماعيلية في التاريخ وهي الدولة الفاطمية.

لم تكن الدولة الفاطمية مجرد دولة ذات حدود سياسية وسلطة تبسط نفوذها داخل تلك الحدود، بل كانت مشروعاً دينياً وسياسياً ممتزجاً تدعمه أكبر خلفية معرفية في تلك الحقبة، فقد كان أشهر فلاسفة المسلمين ينتسبون إلى الإسماعيلية، وربما أدخلوا رؤيتهم للإمام في صُلب تنظيرهم لعقائدهم، فقد كانوا يرون الإمام هو الناطق باسم الله أو بتعبير آخر هو نبي مرسل يُرسله الله في كل حقبة زمنية، أي

أن الإسماعيليين يعتقدون أن الإمامة لم تنقطع من نسل إسماعيل ابن جعفر الصادق، بل هي باقية معهم إلى اليوم، وذلك على خلاف الإمامية التي ترى أن الإمامة قد انقطعت باختفاء الإمام الثاني عشر .

أشير إلى أن الخلاف الذي دبّ بين الشيعة وأنتج تفرقهم لأكثر من فرقة هو الذي حدث مع جماعة الإخوان وأنتج تفرقهم إلى قطبيين وبناويين وتكفير وهجرة وجماعة إسلامية وسائر تلك الجماعات، وهي التي تفرعت بعد ذلك إلى عشرات الاتجاهات، فإذا حدث هذا الافتراق فلابد له من مصدر يجتمع عليه الكافة، فالشيعة ورغم تفرقهم إلا أنهم يجتمعون في الولاية للإمام علي ونسله، وكذلك تحقير الصحابة الذين نافسوا الإمام عليّ على السلطة، والإخوان كذلك ..فرغم تفرقهم إلا أنهم يجتمعون في الدعوة للخلافة الإسلامية ولتطبيق الشريعة وإلى سيادة مذهب السنة والجماعة على سائر المذاهب...فالخيط الذي يجمع الشيعة والإخوان هو الاعتقاد بنجاة الذات وعذاب الآخر،فكل فرقة وجماعة ترى في نفسها أنها الفرقة الناجية، وأنها التي تستحق الجنة على ما سواها، فالتراث السني لا يختلف عن الشيعي في ذلك، وكلاهما-أي الشيعة والإخوان-بالعموم هي فِرق وجماعات تراثية تؤمن بالرواية وتضعها حاكمة على آيات القرآن، وكم من المصلحين والتنويريون الذين أسهموا في علاج تلك الآفة ولكن بدت جهودهم كسراب في ظل مطامع السياسة، فجهود ألف عالِم قد تضيع تحت أقدام متعصبٍ واحد.

يرى برنارد لويس أن أئمة الإسماعيلية بعد وفاة إسماعيل بن جعفر الصادق ظلوا مختفين عن الأعين لمدة قرن ونصف، والسبب- كما بدا لي- هو قوة الدولة العباسية في القرن الثامن الميلادي- وهو زمن وفاة إسماعيل- ولكن ما إن بدأ الضعف يدب في أوصال العباسيين حتى بدأ أئمة الإسماعيلية في الظهور، وتلك هي المداولة التي كشفت بعد ذلك عن ظهور الجماعات الدينية في الشرق الأوسط ظهوراً بعد الضعف الواضح التي مرت به دولة العلويين في القاهرة...فنهاية الملكية العلوية وآخر ملوكها "الملك فاروق" في مصر سمحت بظهور أفكار تدعو

للعودة إلى جادة الصواب ولعودة الثقة من جديد، ولكن اختلف الحال هذه المرة ..فتلك الأفكار كانت على خلفية دينية متعصبة للمذهب السني، وجميعها كانت سبباً في إرساء خطاباً دعوياً جديداً يُعلي من شأن الصحابة ويُصرّ على فضائلهم وفي نفس الوقت يتغافلون عن آل البيت ودورهم في نُصرة الدين، بل أجزم بأنه - وبفضل تلك الجماعات- جَهِلَت مُعظم شعوب المنطقة أسماء آل البيت، فإذا ذُكِرَ موسى الكاظم أو جعفر الصادق في مكان إلا وذُكِرَ الشيعة.

رغم أن الإمامين معدودان ضمن أئمة السنة في التراث، ولكن التعصب المذهبي حال دون معرفة الأتباع قيمة ومنازل الآخرين، نفس الحال كان يحدث مع الإسماعيلية ومع ثوراتهم المتعددة- ولا أعفي الشيعة بالعموم من هذا المسلك- كانوا يُعلون من شأن آل البيت ويُصرّون على فضائلهم في صورة عكسية لسلوك تلك الجماعات التي أرست خطاباً مذهبياً شبيه بخطاب الشيعة المذهبي...وطبيعة تلك الدعوات المذهبية لا تظهر سوى في المجتمعات المُفككة، فهي الوحيدة القادرة على احتضان تلك الأفكار، والأسباب متعددة لكن الأصل السياسي واحد، فلو لم تكن المجتمعات العربية مفككة في النصف الثاني من القرن العشرين ما كان لها أن تؤوي الإخوان والجماعات، حتى الانتفاضات المجتمعية القومية التي أعقبت سلطة العلويين في القاهرة لم تسهم إلا في حالة إفاقة جزئية لوعي العرب والمسلمين، ثم عادت الشعوب بعد ذلك إلى ما يُشبه رفع الضوء الأخضر لاستقبال أي أفكار عنصرية أو مذهبية بظنها الملجأ الوحيد إلى الله بعد تعدد الأزمات.

بقي العلم بأن الإسماعيلية لم تشتهر فقط بهذا الاسم كمذهب ديني، بل صنفها البعض كحركة سياسية أنتجت لنا ألواناً شتى من السياسية تجمع ما بين الإيمان والإلحاد ما بين العُنف والسلام، وقد كانت فرقتي القرامطة والحشاشين هما أشهر فرق الإسماعيلية عُنفاً وضراوة، وربما كسر عُنف القرامطة حاجز الدين، فيروي المؤرخون أحداثاُ عنهم لا يُبالون فيها بالأديان، ولكن هذا كله في حال التمكين، فمجرد أن تنداح لهم السلطة إلا ويقعوا في الناس بكافة صنوف المحرمات، سواء

من القذف واللعن مروراً بالعدوان حتى القتل والتحريق...وسلوكهم في ذلك يُشبه سلوك الجماعات الدينية المعاصرة، فتجاربهم في السلطة أثبتت أنه وبمجرد التمكين تأتي مرحلة الانتقام من كل إنسان، فيشرعون في توظيف الكل لمصالحهم وإلا فالطرد والقتل، كل ذلك كان يحدث حسب ما يطرحونه تصوراً عن الدين، يختلفون عن القرامطة في أن القتل لديهم يكون بالتأويل.. بينما القرامطة كانوا يقتلون بالسياسة، حتى في هذه فالانتقام لديهم سياسة والسبب أنهم ينتقمون ممن يقفون ضد مشروعهم الديني المقدس.

أما قبل ذلك فيشرعون في تحصيل مطالبهم بالحِيَل والخِداع، فيقول الباحث الهولندي" دي خويه" أن القرامطة كانوا يعتمدون على مواطن ضعف الإنسان فيُظهرون التقوى والورع للصالحين، ويرفعون شعارات الحرية للمتحررين ويُظهِرون الاستهتار لغير المُبالين، ويتكلمون في الفلسفة لأصحاب العقول، وفي الآمال والرغبات للمتصوفة ويحكون العجائب للعامة، فيكسبون بهذا السلوك شرائح المجتمع الفكرية حتى يُصدقونهم ويسمعون كلام القادة، ليس هذا فحسب ففي تقديري أن الحشاشين كانوا يتميزون بهذا السلوك أيضاً حتى قال عنهم برنارد لويس أنهم أصحاب أُقوى تنظيم شيعي عرفه المسلمون.

بمقاربة بدهية نرى أن ما اتصف به القرامطة والحشاشون -من غُلاة الإسماعيلية -يتطابق بشكلٍ كبير مع أحوال جماعة الإخوان، فهم يمتهنون الخُلق والتلوّن مع العامة، ويتكيفون بشكلٍ عجيب مع أي بيئة، ويرفعون الشعارات ويُلهبون حماس الجماهير بالعواطف، حتى تجاربهم في السلطة تحكي عن تشابه عجيب في أنماط المعاملة مع الآخر، فلا يألون بالاً لنفسٍ تُحرق وهم على استعداد لقتل أنفسهم للدفاع عن مشروعهم بأي ثمن، وإذا تحدثنا معهم عن ضرورة مراجعة هذا المشروع كي لا تتحمل أخطائهم وِزر الدماء التي سالت ..يردون بأنهم يستعدون لتقديم المزيد...تفسيري الوحيد لذلك هو أن التضحية من أجل الفكرة تتطلب اليقين التام الذي لا تشوبه شائبة، والعمل الثوري بالعموم هو عمل يقيني لا لبس فيه، فإذا

اجتمعت الفكرة مع الثورة في حضور اليقين نشبت الصراعات وسالت الدماء حتى لا تبقى حُرمة لنفس، وأعتقد أن جماعة الإخوان لو كانت تعيش في زمان القرامطة والحشاشين ما كان لأحد أن يستطيع التفرقة بينهم للتشابه الكبير، أما اليوم ونَظَراَ للتقدم العلمي وسيادة عصر الصورة وسرعة الاتصالات وتعدد مصادر المعلومات وسهولة الحصول عليها أصبح بالإمكان أن يصنع خصوم الإخوان يقيناً آخر يُجابهون به سطوتهم على الجماهير.

بل وبقوة الفكرة الأخرى في دول الغرب الرائدة عَجَز الإخوان عن تقديم البديل، فأصبحوا يُصارعون مجتمعاتهم الفقيرة والأمية بدلاً من أن يُصارعوا أمريكا والغرب، في المقابل لو كان للقرامطة وجود في هذا الزمان لتبدل سلوكهم وتطور بشكلٍ كبير، والسبب هو أن اتجاههم العقلي والفلسفي الذي اشتهر به دعاة الإسماعيلية كان سيُجبرهم على إعادة النظر في معارفهم وسلوكياتهم، فلو عجز شباب الإخوان عن تقديم مراجعة أنفسهم أو تقديم البديل الصالح والقوي فلن يعجز شباب القرامطة في ذلك، ولو لم يغفر المجتمع للإخوان أخطائهم وجرائمهم سيغفر للقرامطة جرائمهم بمجرد وقوف شبابهم على الحياد في أوقات الأزمات.

بقيت الإشارة إلى أن ما يعاني منه الإخوان من أزمة ثقافة هو في تقديري لا ينفصل عن أزمة الفكر السني والشيعي بالعموم، فكلاهما لا يعيشان الواقع، فترى الشيعي يبكي على الإمام الذي يختاره"بالنص" ثم يذهب للإدلاء بصوته في انتخابات لاختيار إمامه والذي لم يعد بالنص في مفارقة عجيبة!..ثم ترى السني يلعن القانون الوضعي والفرنسي والألماني والنيوزيلاندي والدستور الأمريكي والتنزاني ثم يذهب للتصويت بنعم على نفس الدستور والذي لم يعد ملعوناً!...إنها أزمة وعي وثقافة لم تقف عند حدود السياسة بل تجاوزتها للأخلاق، حيث اعتبروا أن كل من يكشف لهم أزمتهم وطُرق تفكيرهم العقيمة أصبح عميلاً مرتزقا لا يُقبل منها صرفاً ولا عدلا...!

إن أزمة الإخوان الحقيقية ليست سياسية فقط، بل السياسة وجه من أوجه الانحطاط الأصيلة لديهم..يتكلمون عن ضرورة تطبيق الشريعة ثم يؤمنون بالديمقراطية متناسين أن الديمقراطية تفرض عليهم رأي الشعب الذي قد يتعارض مع رؤيتهم حول الشرع..ويتكلمون عن الخلافة كأنهم يعيشون مع بني أمية والعباس وبني عثمان ..ثم يتجاهلون سايكس بيكو والثورة الرقمية وعصر الصورة وسيادة المشهد بالضبط كتجاهلهم للثورة العلمية التي أطاحت بمعظم التراث الروائي الذي شكّل- حتى أواخر ازدهار عصر العثمانيين- أصلاً من أصول الفهم السياسي وفكر الخلافة وشيوع مبادئ الشورى على رأي السلطان وحاشيته.

وعليه كان من الضروري أن نستعرض بعضاً من تلك الأزمات الإخوانية مع الثقافة، والتي أصبحت كالشلالات لا توقفها الصخور بل توقفها الإرادة ولا شئ غير الإرادة، فلو امتلكوا الإرادة لكان تحصيل العلم لديهم مسألة وقت، ولكن بما أنهم يشعرون بالاكتفاء ، وبأن ما لديهم من تراث يكفي لمعرفة البشرية والعالَم ..فلا أمل فيهم حتى ينضجوا إلى مستوى المسئولية عن أنفسهم والآخرين.

أمثلة من أزمات الإخوان مع الثقافة

أزمة النقد

منذ نشأة جماعة الإخوان كتنظيم دعوي لم يكن في حسبان القائمين عليها أن يطغى دورها السياسي على الدعوي، فالتربية في قوام العقل الجمعي الإخواني هي الأساس، وما ساعد في نمو هذا الأصل كثرة المظالم التي تعرضت لها الجماعة على أيدي النافذين في السلطة،فالتأثير السيكولوجي في بناء وتشكيل الرأي عظيم بل وفي تفسير الأحداث لا يقل أهمية ، ومن هذه الخلفية تُبنى المرجعية ولكن ظهورها لا يجمع بين العقل والروح فتبقى المرجعية أسيرة لأحدهم دوناً عن

الآخر، بمعنى أن الجمع إن كان دافعه العاطفة فالتأثير سيكون على الروح أقرب، وبتراكم الحالات نشأت لدى الإخوان قوة روحية عضدت بين الكوادر وجعلتهم أكثر تلاحماً..وهذا طبيعي في ظل سيطرة القوة الغاشمة على الحق المطلق والنسبي أيضاً ..فلا مكان للرأي الآخر.

الجماعة من الداخل تفتقر للنقد.."العنيف"..فهي لا تقبل أي نقد حاد كونه- في العُرف الإخواني- خروجاً على النظام العام وتمرداً على الفكرة..هناك سلوك نقدي داخلي ولكن بمقدار الاستدراكات والاستشكالات ولا يقبلون الطعن بأيٍ من "المسلمات" ولو كان المبرر حاضراً وقويا..هذا هو فهمهم للشورى وأنه من الأدب أن لا يكون النقد حاداً أو عنيفاً مهما بلغ الضرر والخطأ مبلغه..هذا الوضع طبيعي في ظل سيادة الروح على العقل وبالتالي علو المُجاملات على حساب الثقافة ، فكم من مثقف ترك الجماعة ليس لأجل تمرده على الفكرة بل لاتساع معارفه واستشكال أمور أعظم من قدرات الجماعة أن تناقشها ولو على مستوى النُخب.فالكيان التنظيمي القائم على العمل الجماعي في الغالب لا يستوعب قيمة السؤال وأهميته في البناء،بالضبط كالعمل العسكري لا يجوز فيه السؤال ولو جاز فهو في أضيق الحدود ويبقى الرأي الأول والأخير للقائد..هذا بالضبط ما يحدث داخل الجماعة.

إن اختياري لمُصطلح.."النقد العنيف".. لم يأتِ جزافاً....حيث ما دام الإنسان-في الغالب- يجهل العلل التي تدفعه لأفعاله فهو بالكاد يصادر حرية الآخرين، لأنه يظن في قرارة نفسه أنه السيد والوصي وأنه الآمر الناهي ولو –ولو بعقل الجماعة-فينشأ لديه شعور لا يقبل التخطئة ،خاصةً في ما يظنه مسلمات وبالتالي لا يبرز من قيمة النقد سوى الحوار، والذي يتم في الأعم الأغلب على شكل حوار أخوي هو عماد صورة.."الشورى"..في أذهانهم...هذا السلوك يحجب الحقيقة لديهم وذلك لأنهم يخلطون بين مفهوم الإنسان كونه غاية وكونه وسيلة في ذات الوقت، فيصادرون الإنسان الغاية لحساب الإنسان الوسيلة بمعنى أن الإنسان الوسيلة

وجوده ممكن لوجودهم الواجب -في مضامير عمل الجماعة، ..فالكوادر جميعهم مسخرون لخدمة القادة، وبالتالي لا يجوز النقد العنيف كونه يُخرج الإنسان الوسيلة لديهم من إنسان تابع إلى إنسان مستقل، ليس فقط ذاتياً بل أيضاً مستقل الإرادة..وهنا الخط الأحمر الذي يهابه كل إخواني..ففتح الباب أمام استقلال الإرادة يعني انهيار عمل الجماعة، ذلك كونه الجماعة نشأت للعمل التنظيمي الذي لا يعرف سوى مبادئ السمع والطاعة في المنشط والمكره.

إن حُرمة النقد العنيف داخل الجماعة خلقت لديهم ضعفاً ثقافياً وعزلاً اجتماعياً هائلاً..ولولا تودد الكادر الإخواني للشعب بما نشأ عليه من أخلاق تربوية لما كان للإخوان أي شعبية ولثار عليهم المجتمع كما يثور على أي تيار يجعل من تياره هويته، فيُفرق بين الناس على أسس الانتماء الحزبي سواء كان سياسياً أو دينياً ، تحدث تلك العملية ولو بالإضمار الذي ينعكس أحياناً على سلوكهم وتصريحاتهم..هم يعتقدون أن هذا التودد هو جوهر الإسلام الذي سيُقرّب إليهم الحُلم الأعظم ألا وهو.."أستاذية العالم"..وهذا جهل مركب يعاني منه الكوادر والقيادات على حدٍ سواء..فمعنى التودد سواء بالقول أو بالفعل أو بالعمل الخيري والاجتماعي أو بمعارضة الحاكم الظالم ليس كافياً كونه يخضع لرقابة الثقافة، فهي التي يستطيع بها الإخواني تجريد كافة أعماله السابقة وإدخالها في مضمار الإصلاح، وبدون الثقافة يفشل الكادر الإخواني في ترجمة وتفسير بعض الأحداث فيفشل في التعاطي معها والتي تكون في الغالب أحداث مفصلية أو نتائج لمقدمات منهج الجماعة أو لرواسب أخلاقية وسياسية تورطت فيها الجماعة عن جهل أو عن عمد.

أعتقد أن الخروج من هذه الأزمة الفكرية -والتي ربما تطيح بالجماعة-أن يُقدم قادتها وشيوخها على أحد اختيارين هما أصعب من بعض..الأول هو حل الجماعة وحصر أعمالها في عمل الحزب السياسي..الثاني هو السماح بتعدد الأحزاب داخل الجماعة وترك حرية التحزب السياسي للكادر الإخواني يختار أيما يشاء من

أحزاب على الساحة ينضم إليها..والاختيار الثاني أؤيده بشده حيث فوائده أعظم من أن تُحصر في مقال..وأعتقد أن امتناع الجماعة عن عدم تطوير نفسها سواء بإجراء تغيير جوهري في هيكلتها أو تذمرها من أي نقد عنيف هو ثمرة من ثمرات التفكير من داخل النسَق والتي تعاني منه الجماعة منذ وفاة الشيخ حسن البنا..فالرأي الآخر يكاد يكون موضع شبهة و متآمر وأنه يريد منفعته على حساب الجماعة..هذا سلوك مبرر أخلاقياً كونها نشأت في ظروف معقدة حتى أن مرور الحقب السياسية عليها كان مروراً ليس لطيفاً..بينما الحقيقة أن إهمال الرأي الآخر كان هو السمة الأبرز التي صنعت صورة عن الإخوان أقرب للبراجماتية.

أعتقد أنه لولا تسلط السياسيين على معارضيهم في مصر لرأينا جماعة إخوان أخرى غير التي نراها، فما بين عشية وضحاها أمست الجماعة في كرسي الحكم ساعين للتمكين بكل ما أوتوا من قوة، ووضع كهذا يخلق صداماً لم تكن تتوقعه الجماعة، فدائرة الإصلاح المجتمعية في وعيهم الجمعي قد تكون سراباً في عقول ووجدان الأغلبية قبيل العام ٢٠١١..بينما وكان الإضمار يعلو على التصريح خاصة في قضايا ذات أهمية .."كالديمقراطية والشريعة"..رأينا تخبطاً سياسياً وفكرياً أثناء كافة الانتخابات بعيد قيام ثورة ٢٥ يناير..فيُقال نحن ديمقراطيون وسنطبق الشريعة ثم يسأل سائل ومتى ستطبقون الشريعة؟..الجواب: ليس الآن!!..هذا تصرف غريب وهو أعظم دلالة على عدم وضوح الفكرة الإصلاحية في العقل الجمعي الإخواني ككل، فمسألة التصريح بالشريعة يضعك أمام خيارين:

أحدهم هو تفهمك الكامل لقضية الإصلاح والشريعة وطريقة المزج بين أي نقيضين أو التعامل معهم، مما سيدفع الجماعة لشرح الفكرة شرحاً مستوفياً يتضمن برنامجاً مميزاً لم يسبقهم إليه أحد في أصول غير مشتركة تضع الجماعة على رأس جميع النخب المثقفة، وهذا لم يحدث، حيث وبشبهة بسيطة كالموقف من النص والتاريخ والاستفهام عن منهج الإسقاط يأتي على الفور الحديث بمفردات.."كالوسطية والسماحة والعفو..وما إلى ذلك"..فالحقيقة أن هذه المفردات

ليست محل خلاف فهي مبادئ عامة تتغير وسائلها من فصيل لآخر، أما تحجيم تلك المفردات وحصرها في الرد على الشُبهات لهو الاختزال والضعف بعينه، فالتاريخ السياسي للمسلمين وللخلافة في معظمه لم يكن على ما يرام، حتى أن البعض يصل بخياله إلى القول بأن العُمرين."ابن الخطاب وابن عبدالعزيز".. هما الأعدل والأبرز بين كافة خلفاء وأمراء المسلمين منذ وفاة الرسول، وبغض النظر عن صحة هذا الادعاء.. فنحن أمام حقيقة واقعة تقول بأن أغلب من يتحدثون عن الشريعة يرفضون الحديث في التاريخ وفي منهجية التعامل مع النصوص، حتى أنهم يزعمون أن العدل ملازم للنص تحت أي ظرف وما سواه ليس بشرع وليس بعدل، وهذا لعمري لإجحافٌ شديد فأين هم إذاً من سلوك عمر ابن الخطاب رضي الله عنه إذ منع أشياء كان يفعلها المسلمون على عهد الرسول منها ما نص عليه القرآن كمتعة الحج وأشياء أخرى أعتقد أن ابن الخطاب لو كان حاكماً في هذا الزمان وفعل هذه الأشياء اجتهاداً فسيُكفّر لأجل اجتهاده.

أما الخيار الثاني فهو عدم التلفظ مُطلقاً بلفظ الشريعة ولو على سبيل التأجيل كما يفعل بعض الجُهال منهم..والجهل وصف لحال موجود وليس انتقاصاً من أحد، فمعنى الحديث عن الشريعة هو تفهمها كمفهوم وسلوك ثم التطبيق، أما التأجيل فهو حرق للمفهوم في الأذهان، فتكرار المفاهيم دون التطبيق يحرقها في العقل حتى يبدأ في تصورها بشكل جديد عما هو متعارف عليه، وبالتالي يكونون قد وضعوا الخيار للشعب بالرفض دون شعور منهم بما يحدث في العقول من برمجة وعمليات تجريد لا يدركونها أو حتى يرصدونها،وهذه إحدى علامات الجهل لدى هؤلاء...فهو يعتقد أن المفهوم مُجرد ومُجرّب وجاهز للتطبيق فقط هم يحتفظون به لحين ميعاد تطبيقه وهذا غير صحيح فمع أول احتكاك مع مخالفيهم-الذين يعتبرونهم مخالفي الإسلام-يتضح لهم أن العمل السياسي يقبل الخطأ والصواب، أما الدين فلا يقبل سوى الحلال والحرام، وبالخلط بينهم يصلون لطريق مسدود فيأتي التكفير بمجرد الرأي.

أزمة التاريخ

الشاهد في هذه الأزمة هو عدم الاعتبار وتكرار نفس الأخطاء التاريخية التي نجمت عن قلة الوعي الإخواني -أو انعدامه- مما يستدعي حضور معتقدات مشابهة لما حدث من قبل وقيل أنه جرائم إخوانية في حق مؤسسات الدولة..مثال ما يحدث الآن من معارك إخوانية مع القضاء المصري والتي تستدعي للذاكرة ما حدث للقاضي الخازندار من قبل بمجرد كونه كان ينظر إحدى القضايا التي كان يُتهم فيها أفراد من الإخوان فتم تعقبه وقتلوه في جريمة ألصقت بالجماعة ككل- وهذا سياق آخر..وبالتالي وبحسب ريادة الإخوان للتيار الإسلامي نرى كافة فصائل التيار من اليمين لليسار ومن المحافظين إلى الإصلاحيين ومن المتطرفين إلى المعتدلين قد اكتسبوا نفس الموقف، ومن كان يشهد للقضاء المصري من قبل بالنزاهة والعدالة نراهم الآن وهم يرفعون سيوف الطعن والتخوين والعنف اللفظي تجاه أي قاضٍ يُظهر حُكماً أو قولاً يخالف توجهات التيار.

حسب الرؤية الكلاسيكية للتاريخ فهو عبارة عن ماضي وحاضر ومستقبل وليس - كما هو مُشاع- أنه ماضي الأفراد والأمم، فحسب هذه الرؤية الكلاسيكية ربما تُنتج لنا معنىً خطياً لا أؤمن به، ولكن يتبدى لي أن رؤيتي الرافضة لخطية التاريخ هي بالفعل أو بالتطابق، وفي حالة الإخوان أرى خطية تاريخهم بالقوة أي بالمعنى أو بإمكانية الحدوث..وهذا أقرب تفسير حول رؤيتي لأزمة التاريخ عند الإخوان، فتكرار جريمة الخازندار ممكنة في ظل هذا التحريض الإعلامي الإخواني ضد كل ما يمت للقضاء بصلة، والإنسان العربي -بضعفه- لا يتحكم في حدود صراعه فتتكرر المأساة وربما نرى خازنداراً آخر.

هذا السلوك أشبه بما يكنه الإنسان من طموحات فيطمع في درجات ليس مؤهلاً لها، كإرادة الجبان أن يكون شجاعاً فيظن بجهله أنه قادر على تحصيل الشجاعة

بمجرد الغضب، وينسى أن ما بينه وبين الشجاعة هو نفسه فارق الطوابق المتعددة ما بين الطابقين الأول والأخير ، وبالتالي فينبغي عليه بلوغ الطابق الثاني والثالث قبل بلوغ الطابق الأخير..فلو سلك هذا الإنسان مسلكه الطبيعي في التدرج لتجذرت في نفسه روح الشجاعة-كقيمة- وفهمها قبل بلوغها ، حتى أنه ربما لا يشعر بها إلا بشهادة الغير ، أما لو حاول القفز فوق الطوابق فربما يصل ولكن حينها لن تكون شجاعة بل مشروعاً للغضب والتهور ينتهي بزوال الدافع وحضور الاكتفاء ،فيسقط في بئر الجهل والنسيان فيذوب حتى ينتهي، البعض يرى هذا رسماً خيالياً ولكنه ممكن حدوثه في من جعل دينه هويته، أو من اختزل قيم الإنسان والوطن والعالم في شخصه أو حزبه، ربما كانوا يؤمنون-عملياً وليس نظرياً- بأن الوحي لا يزال موجود، ولكن فور بروز السقوط القيمي لهم-من خارج النَسَق-يتحول الوحي إلى رأي.

وعليه كانت إشكالية التاريخ في ذهن الإخوان لا تقل عن إشكالية البرجوازية في ذهن الماركسيين، فالحدث التاريخي-أياً كان- يعبر عن نظام تفكير وضمير شعب وثقافة عامة سائدة أرى أن المجتمع المصري-بها-لم يختلف كثيراً عن زمن الأربعينيات، وما دام التعرض للقضاء لم ينتهِ من الوعي الإخواني فسيظل يحارب كمن حاربوا الخازندار من قبل..

ومع هذا فهناك بُعداً سيكولوجياً للمسألة لابد من طرحه في هذا السياق، أتخيله في يقين الإخواني بامتلاكه للحق المُطلق –إضماراً-وينعكس هذا على أفعاله وأقواله-أحياناً-ومع رفض سلطة الحق الدنيوية له "الممثلة في القضاء" فينزع نحو الدفاع عن نفسه معتقداً أنه يدافع عن القيم التي نشأ عليها، أي أنه يعتقد أنه يدافع عن الحق المُطلق بهجومه على القضاء فهو لا يريد سلطة دنيوية تتحدث نيابةً عن الحق إلا هو ، لذلك أعتقد وكما يثبت لي يوماً بعد يوم، أن الأزمة في الإخوان هي أزمة ثقافية حادة أنتجت لهم أعراضاً شكلت لديهم أزمات أخلاقية ومنهجية.

أزمة التعاليم

أن تخرج مجموعة من الناس تدعي أن لها قائداً ومعلماً يسيرون على هديه فهذا أمر عادي، ولكن الغير عادي أن تخرج نفس المجموعة تدعي أنها تِبعاً للقائد المعلم، ولكن في ذات الوقت ينتهجون نَهَجا مغايراً أو معكوساً، فأصبح الانتماء الأول بحاجة لبرهان..هذه الحالة تستوجب الخلاف داخل المجموعة بمعنى أن يخرج فريق يطالب بالعودة للأصول"المكتوبة" قولاً وفعلاً، وفريق آخر يصر على أن الموجود هو المنهج وأن الانحراف هو من يطالب به الفريق الآخر، وهؤلاء جميعاً يختلف الناس في تصنيفهم ما بين المحافظة إلى الانفتاح"الإصلاح"...ولكن الأصل الذي يجمعهم هو تصور دعوة فرد أو معلم في الذهن ومن ثم التطبيق، وهذا في العادة ينتج من خلاف تصور الحقيقة لدى الناس ودلالة واقعها وصدق ونُبل أهدافها.

تقوم الدعوة في الإخوان على ثلاثة أسس رئيسة هي بالترتيب.."الإيمان بالشيخ حسن البنا كمعلم مستنير -والإيمان بدعوته وتعاليمه المدونة في الأصول العشرين- ثم أخيراً المجتمع"الإخواني" والذي يلقبونه بالمجتمع"الإسلامي"...وأياً كان الخلاف مع هذا التصنيف فهو واقع إخواني تطبيقي ولو بطُرق غير مباشرة، بمعنى أنه لا يصح أن تكون إخوانياً وأنت تنتقد أو تطعن في صورة حسن البنا- الموجودة في الأذهان - أو تهدم تعاليمه أو تختلف مع الصورة المنطبعة في الذهن عن"المجتمع الإسلامي" لديهم..جائز أن تختلف مع هذه الأسس -أو أساس واحد- ولكنه يبقى خلافاً في حدود المسموح داخل الجماعة طبقاً لما أوردناه في السابق عن حُرمة"النقد الحاد" داخل الجماعة وبالتالي فلن يقبلوه من الخارج، بمعنى أنك لن تكون إخوانياً وصورة دعوة الإخوان في ذهنك غير التي كونها العقل الجمعي الإخواني والمستمدة من سيرة الشيخ حسن البنا -رحمه الله- وأصوله العشرين ومجتمعه الإسلامي.

قيام الدعوة الإخوانية –بهذه الصورة-شبيهة بصورة الدعوة البوذية في أذهان البوذيين، وهم أيضاً يعتقدون أن من يخالف نفس الأسس ليس بوذياً ابتداء..وأسسهم هي الإيمان.."بالمُعلم المستنير "بوذا"-ثم تعاليمه-ثم مجتمعه البوذي"..هناك فارقاً- منعاً للخلط-أن الإخوان –كدعوة- تنتمي للفصيل الإسلامي الداعي إلى التوحيد ، أما البوذيون فيعتقدون في حكمة بوذا غناءً عن ما غيرها من الحكمة وبالتالي الأديان، ولا تفصيل في دعوة بوذا ففيها مما هو -غير المشهور -عنهم الكثير، وهي دعوة بها خير عظيم لكل من يقرأ..كذلك فأصول دعوة الإخوان بها خير كثير أيضاً لمن يقرأ، ولكن الفارق سنسجله بعد المقدمة.

استطاع البوذيون الحفاظ على دعوتهم رغم أن كثير مما أتى إليهم من مُعلمهم شفهي، وفي عصر كان فيه نسخ الكتب من المسائل الصعبة، ومع ذلك لم يستطيع الإخوان الحفاظ على دعوتهم رغم أن كل ما أتى من معلمهم إليهم منسوخ ومطبوع في عصر كانت فيه الطباعة هي مَعلم الحضارة الأبرز، ومع ذلك ترى البوذي يقول بضرورة ممارسة الآخر للعقيدة البوذية كي يفهمها ، ويوافقه الإخواني بقوله أن فهم دعوة الإخوانية يبدأ من ممارستها -في إطار التنظيم، وأن جل مخالفي الإخوان –إن لم يكن كلهم-لا يمارسون الدعوة وبالتالي فسيصعب عليهم فهمها..في النهاية هذا هو عين التفكير من داخل النَسَق-المعيب- وكأن العائق البوذي أمام التواصل مع الآخر هو نفس العائق الذي جعل الإخوان متقوقعين داخل إطاراتهم الفكرية لا يشاركهم فيها أحد، ولو شاركهم أحد فمن خلفية سياسية أو عاطفية دينية بينما المعلم الأبرز الذي يميز الإخوان عن المحيط-كتصنيف-لم يصل بعد لأذهان الحلفاء والمحبين.

على النقيض من ذلك نرى أن البوذية و"الإخوانية" لهما وجهان تواصليان"إيجابيان" من أثر عدم تعلقهم بالشكليات، فتعاليم بوذا تُشدد على أن الإنسان لن يصل للحقيقة إلا عبر مقاومته للشهوات، وتلك المقاومة ليست عبر الطقوس التعبدية"الشكلية"

كالغُسل في الماء المقدس مثلاً أو حلاقة الشعر أو بالقرابين أو بزي معين أو الاعتقاد بالنجاسة -بمجرد أكل طعام معين- وما إلى ذلك من فوارق جوهرية تصنع تمايزا للبوذية عن الهندوسية- الأقرب للتصوف الإسلامي من غيرها من الديانات-كذلك في تعاليم بوذا التي تحض على غض البصر ومجانبة قول الزور وتحريم الخمر والتعدي على الآخر وبر الوالدين وغيرها من السلوكيات التي تصنع انضباطا إنسانياً متميزاً..في النهاية نرى لدينا تعاليماً بوذية تهتم بالإنسان كونه هو عماد المجتمع وصانع النهضة..وما ينطبق على الدعوة البوذية ينطبق أيضاً على الدعوة الإخوانية-مع الفارق..فلولا تميز "الفكر"الإخواني بما سبق من تهذّبٍ روحي وسمو إنساني عن الملذات لما رأينا لدعوة الإخوان انتشاراً شعبياً ولبقي الإخوان ربائب منازلهم منتظرين ميعاد احتفالهم -بما يميزهم عن غيرهم- كالصوفي الذي ينتظر موالد الأولياء التي تعتبر هي حلقة الوصل "الوحيدة" بين الصوفيين والمجتمع..

إن كانت من أزمة للفكر الإخواني فمع الواقع.."المتغير"..ومع التراث والتاريخ.."المذهبي الجامد"..ومع الثقافة.."الخطية"..التي نشأ عليها ، وجميع ما سبق جعل من الكادر الإخواني مشروعاً لإثارة المشاكل السياسية والفكرية والمنهجية أينما حل أو راح، وهي التي خلقت لديه انحرافاً عن "الوجه الإيجابي" لأصول الشيخ حسن البنا –رحمه الله-التي أعدها من أرقى الوجوه التي وإن تمسكت بها مجموعة من الناس كانت سبباً في رقيهم بغض النظر عن سيرة الشيخ-المختلف عليها-فنحن هنا نتعامل مع أفكار وأطروحات..فمثلا عندما يقول الشيخ حسن البنا.." نحب أن نصارح الناس بغايتنا ، وأن نجلي أمامهم منهجنا ، وأن نوجه إليهم دعوتنا ، في غير لبس ولا غموض ، أضوأ من الشمس وأوضح من فلق الصبح وأبين من غرة النهار"انتهى..بينما نرى الغموض والكذب والستر وتناقض المنهج حاضراً ..أيضاً وحين يقول الشيخ.." ونحب مع هذا أن يعلم قومنا – و كل المسلمين قومنا – أن دعوة الإخوان المسلمين دعوة بريئة نزيهة ، قد تسامت في نزاهتها حتى جاوزت المطامع الشخصية ، واحتقرت المنافع المادية ،

وخلفت وراءها الأهواء والأغراض"انتهى..ومع ذلك تراهم يسعون وبكل قوتهم للتمكن من كافة مفاصل الدولة المصرية وبوسائل لا تخلو من الكذب والخداع وتشويه الخصوم مصحوبة بخطاب"ضرورة الفرصة" وكأن الإنسان حين يتمكن تظل الحقيقة لديه ناصعة وبمعزلٍ تام عن الكذب وبهذا يثبتون للكافة جهلهم بطبيعة الإنسان الضعيفة أمام خطأ الحواس والنائمة أمام تيقظ وقوة التجربة....

لعل ذلك الذي يحدث هو من أثر النزعة"التصنيفية"التي حاكت أصول الشيخ حسن البنا حين أراد تصنيف الناس إلى أربع أصناف ينطلقون منها إلى للناس.."مؤمن-متردد-نفعي-متحامل"..كذلك في الإيمان بدعوة الإخوان بأنها المعيار التي تقيس به الجماعة صلاح وفساد الناس -وهذا عمل فاسدٌ ولا شك..وحين الجمع بين هذه الدعوات السلبية التصنيفية الإقصائية مع الدعوة للوضوح والوحدة والسلام نرى أن الجماعة أصابها زيفٌ كبير في الوعي، ومع تراكم الانحراف الإخواني عن "الوجه الإيجابي" من التعاليم لابد وأن نرى نماذج بشرية متناقضة ونفعية بالدرجة الأولى، فالرؤية التي ينطلقون منها أحادية صِرفة ، والسبب هو نكوصهم عن بيعة الشيخ البنا في تعاليمه الحسنة واستبدالها بنزعة سلفية"تصنيفية"وجدت لها عُمقاً في الفكر الإخواني مُمثلةً في نزعات التصنيف والدونية.

المواقف الأخيرة للإخوان خاصة بعد ثورة ٢٥ يناير تعطي دلالة عنوانها أن كافة أمراض الجماعة بدأت في الظهور، فما خفي بالأمس من فعل الحظر والعمل السري أصبح الآن مكشوفاً حتى تلك الصفقات والدعوات السرية مع الأعداء انكشفت بأثر صدمة رسائل الرئيس الإخواني"محمد مرسي"للرئيس الإسرائيلي"شيمون بيريز"والتي عبر فيها عن حبه وامتنانه وصداقته للرئيس ولشعب إسرائيل"المسالم والراغب في السلام"!..ونسي الرئيس"المبجل" أنه هو نفسه وكافة أفراد جماعته كانوا يصرخون في الماضي بضرورة طرد السفير الإسرائيلي وإعادة النظر في اتفاقية السلام مع العدو، وأن وعيهم الجمعي كان لا

يخلو من فكرة العداء مع الصهاينة حتى أنهم كانوا يُنشدون الأناشيد والأرجوزات منذرة العدو بقُرب هلاكه..

وظهر للناس أن ذلك لم يكن إلا حُلماً عزيزا، وأن الجماعة كانت تخدع الناس بالشعارات الجوفاء الخالية من روح الواقع وفهمه..و بينما هو كذلك يتحدث الرجل عن خصومه في الداخل فتعلو نبرة"نحن وهم"فيصنع التمييز والاستقطاب دون وعي...فتخرج المعارضة معترضة ومحاسِبة فينتفض لها الإخوان أن"لا محاسبة" فأنتم أقل من أن تحاسبوننا نحن الأسياد..هم لا يصرحون بهذا-كمبدأ- ولكن –غالباً- حين يضمر الإنسان قولاً أو فعلاً ولا يُظهره فلن يستطع إضماره طوال الوقت، وها قد بدأ في الظهور، والقارئ لعقائد الكوادر الإخوانية سواء في مواقعهم وصفحاتهم الاجتماعية أو في يسمع صيحاتهم في الميادين يرى -وبدون لبس- أن الإخوان يعتقدون بسيادتهم على الشعب وكافة مخالفيهم، وأن الجميع ممكن لوجودهم الواجب، بالضبط طريقة تعامل القيادة الإخوانية التنظيمية لكوادرها –عملياً-وكأن القيادة الإخوانية تريد مجتمعاً إخوانياً خارجياً كما حققوه داخلياً.

أخيراً فإن الشعوب التي تنهض بعد سباتها بالضبط كالأميرة النائمة حين تستيقظ من نومها، فأول ما تتفتح عليه أذهان الشعوب هي المادة وحاجات الجسد التي تمثل حاجة الاكتفاء-لديهم- لبلوغ أدنى مراتب البقاء والحفاظ على النوع، فالشعوب يهمها في المقام الأول العيش المادي الرغد وتعففهم عن سؤال الناس ابتداء، والأميرة حين تصحو من رُقادها تكون أحوج لطعام الإفطار وبمؤانسة خدمها وحشمها لها في مخدعها، كذلك الشعوب فهي تعتقد بأن حكومتها هي خدمها وحشمها وأن عليها العمل لكفايتها، فما من حالٍ سابق إلا ويطمع الإنسان في اللاحق بل ويستبشر به خيراً.

ومن هنا تأتي حكمة الإنسان بأن لا يَعِد الناس بما هو أعلى من قدراته، بينما وبجهل الإخوان وتشققهم –الخُلقي والثقافي -وعدوا الناس بالجنة فكانت النتيجة أن فشلوا في أول امتحان وهو وعد ال١٠٠ يوم الرئاسي، وكأن الأميرة تنتظر دورها في دخول الحمّام -الذي لا يملكه أحدٌ غيرها ،أو تأخر طعام الإفطار ونسوة التجميل والزينة إما لفقر الأميرة أو لتقاعس حراس ومُدراء القصر، وبينما والإخوان كذلك فيهرعون لمحاسبة معارضيهم الذين أرادوا محاسبتهم عن أولى وعودهم الكاذبة فتخرج الأميرة حزينة بعد اكتشافها أنها تعرضت للخيانة وأن أبيها.."الملك حاكم البلاد" قد قُتل وأن الحاكم الجديد لم يألوا بالاً لمركزها وسمو منزلتها فسجنها إلى أن يصفح عنها أو أن يشفع لها شفيع...

أزمة القوة والغرور

هناك ثمة رابط بين فهم المجتمع والدين يتمثّل في النظر للواقع وممارسته وذلك عن طريق أناس يتمتعون بقدرٍ من الذكاء، وإن حيل بين هذين النوعين من ربط فأتخيله في وجود الخلط بين سلطة التاريخ وسلطة الدين، فمبجرد الخلط يعتقد الإنسان أن دينه تاريخه والعكس..وهذا غير صحيح..فالحياة الإنسانية حافلة بأحداث ومُدركات كان فيها النجاح والفشل قرين كل سائل، وبالطموح الإنساني ينجذب نحو مجده الماضي -بل ويريد تكراره- وإن لم يكن بالتطابق، فلكل عصر معطيات وشواهد ستؤثر حتماً في تفريغ العقلية الذهنية من التصور والمماثلة ،وإن كان هناك من منطلق أخلاقي عبر نظرية فريدة فلا تكفي ..وفي الغالب يعي الإنسان –المفكر-هذه المسألة، لذلك كنت من الداعين لتفصيل أي رؤية سياسية مبنية على واقع تاريخي وإخضاعها لمسائلة قوانين وعلوم العصر.

الإنسان في العصر الحالي بلغ أرقى وأعظم مراتب العلم والإدراك، وحين رصده لأي رؤية خاصة وإن كانت أيدلوجية ذات خلفية دينية فيقوم "الإنسان المفكر" في

هذه الحالة بعملية تجريد للأيدلوجيا وإخضاعها لسلطة العقل والمقارنة وإذا لم يقنع بها يهم بنقدها...هذا في حال الرؤية من منظور الضعف أو الاشتباه وأصحاب هذه الرؤية أكثرهم من العرب ، لذلك كان العقل العربي يتعاطى مع المسألة-في الغالب-وكأن هناك تهديد حقيقي لهويته فتخرج إشكالياته في صورة ردود أفعال، ذلك لأن الوعي العربي لم ينضج بعد بفكرتي الديمقراطية والحرية، حتى أنه يجهل آلياتهم أو كونهم آليات، وفي الغالب يخضعهم للرؤية الدينية والتي -وبتأثير الثقافة-ينحط برؤيته فلا يرى سوى نفسه أو من معه..أما من يرى بمنظور القوة فأكثرهم من ذوي الحضارة الغربية ذلك لأن القضية لديهم مُجربة وهذه إحدى ثمرات البراجماتية، حتى أن المنتمين إليهم من الأتراك-كمثال-باتوا يفكرون بنفس طرائقهم وإن كان ما يجمعهم مع العقل العربي لا يكفي للانتقال لمنظور آخر أو الاشتباه .

في ظل هذا الوضع يكون الاحتكام للتاريخ دربٌ من الجهل، ولَكم رأينا حضارات وعوالم جديدة ارتقت بالإنسان ولم تقف حيال ما يشتهيها من السلطة موقف الطامح للغزو فتقريباً القضية متشابهة ، ذلك لأن من يعيب على الآخر تاريخه فهو يعاني من نفس العيوب، والشاهد يبقى في الاعتبار بالحاضر ومعايشته والخروج من ربقة التقليد والجهل الذي وإن ضرب أمة فيقتل أول ما يقتل.. "الإرادة واليقين"..فيتيه الإنسان بين دروب التجارب ويصبح مجرد ردود أفعال، وأعتقد أن الواقع العربي الآن لا يخلو من هذه الحالة..

ولكن تبقى هذه الحالة رهينة كي تنسلخ من خطاب.."الوحي البشري"..لبلوغ النهضة..وسبب تسمية هذا الخطاب بهذا الاسم ليقين أكثرية التيار الإسلامي وخاصة جماعة الإخوان المسلمين بأنهم يتحركون بناءً عن وحي، وإذا واجهتهم بتقصيرهم وقصورهم المعرفي والعقلي فيجيبون من مرجعية التاريخ ، وإذا استشكلت على التاريخ يكون الجواب حاضر في قوله تعالى.."إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء"..تقريباً هو خطاب واحد مُفعم بالتاريخ حتى مع

تحالف المعارضة ضدهم فيعتقدون بتكرار"غزوة الأحزاب" وأن الجميع قد تآمر عليهم لطمس معالم الدين،أو بازدياد كم الضغط عليهم فيتذكرون حصار قريش للرسول، حينها لا تفسير لتلك الحالة إلا عبر الرؤية السيكولوجية التي تُشرح الوعي الإخواني -وبفعل التناقض والضمور المعرفي- نرى أمامنا عملية إزاحة نفسية يقوم بها الحدس الإخواني دون شعور، فيُعللون ضعفهم بجبروت وطغيان خصمهم ،وقصورهم المعرفي في فساد معرفة الآخر، وكذلك هزائمهم بأنها ابتلاء وامتحان، وكأن الضمير والوجدان الإخواني في إجازة شبة رسمية من التخطيط والتتبع والرصد.

هذه الحالة تكون أقرب إلى غرور القوة"المتوهمة" من سلوك التواضع الأخلاقي، فعالم السياسة عالم متغير ، وهو حجة على كل ضعيف ومتواكل، ذلك لأن النجاح السياسي يستلزم بناء مجتمع معنوي قائم على الروابط الأدبية والأخلاقية، أما العمل السياسي -ففي الغالب- لا يتقيد بهذه الروابط لسيادة القوة النفعية وسلطة الذات على التحرك والسلوك، فسلطة الذات هي الواجهة أمام إرادة الشعوب، والقوة النفعية هي لتجميل سلطة الذات أمام تلك الإرادة الشعبية، لذلك كانت صورة المجتمع الفاضل في العقل الجمعي الإخواني والقائمة على الود والتراحم هي مستحيلة عملياً، وهي صورة طوباوية لا تصلح سوى للقصص والحكايات الأدبية و"النزوات"الشعرية وبالتالي فمقدمات النجاح تكاد تكون معدومة، هذا في حال تحقق تلك الصورة في الذات الإخوانية وهذا لم يحدث وبفضل عدم حدوثه رأينا ونرى يومياً سلوكاً إخوانياً نفعياً وعدم الاكتراث بمعارف الآخر واتجاهاته بل ومخاصمتها في سلوك أقرب إلى العدوانية منه إلى السلمية،فأي ناقد خصم وأي مخالف مشروع لخصم.

أخيراً فأعظم دليل على غرور"القوة المتوهمة"في العقل الجمعي الإخواني هو طريقة تعاملهم مع من انسلخ عنهم كتنظيم وكجماعة، حتى وإن ظل على عهد الإخوان الفكري فهو لديهم مشروعاً لخصم،حتى لو كان قيادياً كبيراً أو أفنى عمره

في خدمة التنظيم والدعوة فيهجرونه ويسيئون معاملته، ونسوا هؤلاء أن الله أمر الإنسان أن تكون معاملته للناس كافة بطريقة واحدة وسلوك واحدة ووسائل واحدة فلا فرق بين عربيٍ وأعجمي ومؤمنٍ وكافر وصالحٍ وطالح..يقول الله تعالى مخاطباً رسوله.."وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا".."وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين"..فهي رسالة دعوة لتوجيه الناس إلى الخير ولسيادة روح السلام والبناء، أما أنه وبمجرد الخلاف والخروج من ربقة التنظيم يكن الإنسان مشروعاً لخصم فهذا هو إتباع الهوى بعينه، وأن الإسلام الحقيقي لا زال غائباً عن الإخوان كسلوك، فالمعرفة والعلاقات الاجتماعية لا يمكن حصرها في التوجه السياسي أو حتى الديني وإلا انتزع الإنسان من ذاته بواقي الخير والصمود وخرج إلى فسيح الشر والعدوان.

أزمة التبرير

في كل مرة أشاهد فيها برامج التوك شو في القنوات الفضائية المصرية ويكون أحد الضيوف فيها هو عضو أو قيادي في جماعة الإخوان أقف على عدة ملاحظات يمكن وصفها بأنها سمة من سمات المرحلة السياسية والثقافية للجماعة، فالأطروحات لا تخلو من تبرير الأعمال والدفاع عنها سواء كانت هذه الأعمال مقبولة أو مرفوضة شعبياً أو من جانب المعارضة،والتبرير لمن لا يعرفه هو باختصار يعني الدفاع بالحق والباطل عن أفكار وسلوكيات مرصودة عبر اختلاق أسباب وأعذاراً ليست هي الحقيقية،مما يعني إنزال هذه السلوكيات منازل القبول عبر الكلام إما بليّ أعناق المُصطلحات والمفاهيم أو بالهروب من محال النزاع بعد شعور داخلي بالعجز عن تفسير أو فهم بعض الأشياء، هو في المحصلة هروب من المسئولية وجدال وكذب وخداع مرير يعاني منه البشر ممن طغت نوازعهم وأيدلوجياتهم على حساب الحقيقة.

سلوك هؤلاء يعبر عن ضياع المبادرة من بين أيديهم وانتقالها من مرحلة العمل إلى مرحلة النقد أو النقض، ولا يمكن اعتبار ذلك احتكاكاً للأفكار كما يروجون له لأن القرار في النهاية لا يؤمن بالأفكار الجديدة وبالتالي لا يأخذ بنقد أو نقض المخالف مهما حدث، لقد اعتادت الجماعة على هذا السلوك مع أبنائها السابقين والحاليين من التيار الإصلاحي ، فيسمعون منهم على طريقة."سيبه يفضفض ومسيره يزهق".. ومعناه إتاحة المجال للرأي الآخر فقط للتنفيس، لكن في المحصلة هذا الرأي غير خاضع للتنفيذ ولو كان حقا... هو سلوك استبدادي بحت ولكنه يتصف "بالعصرنه" كون أحد خصائصه هو الإعلام وسرعة نقل المعلومة، وهو أيضاً سلوك النظام المصري السابق في التعامل مع القضايا والأحداث، فكانوا يندبون عنهم أعضاءاً في الحزب الوطني أو من مواليهم –كما هو الحال عند جماعة الإخوان-يدافعون عن سياسة النظام بالحق وبالباطل.

أفهم أن سلوك التبرير قد لا يكون مقصوداً في بعض الأحيان ، ولكنه موجود ويلحظه الناس ممن يفكرون من خارج نَسَق المُبرر، وبالتالي يُصبح المبرر في إحدى حالتين.. إما أنه ينشر الجهل والتعصب بين الناس سواء بعلم أو بدون أو أنه يعمل على ارتقاء نفسه -ومن يبرر له- حتى بلوغه ومن معه إلى مرحلة العصمة، وفي الحالتين هو يسلك ذلك ويجهل عواقب ما يفعل،بينما كانت هناك بعض السلوكيات القاتلة للتبرير كالشفافية والوضوح والإنصاف والتعمق في القضايا التحليلية والتركيبية وما إلى ذلك من أمور يفتقدها معظم من يتحدثون-حالياً- باسم الجماعة في الإعلام، فهم فقراء معرفيا ويفتقدون إلى أدنى شعور بالفهم في قضاياهم التي يدافعون عنها.

فإذا قلت له تجاوز الصلاحيات يقول إجراءات استثنائية وذلك كمثال لأزمة الإعلان الدستوري مؤخراً، فهم يبررون للإعلان الصادم بأنه إجراء استثنائي بين مؤيديهم.. ولكن السؤال هل يوجد إجراء استثنائي يتجاوز الصلاحيات وما هو محل النزاع أصلاً؟!..إن معنى نشوء إعلان دستوري يتجاوز الصلاحيات بحجة

الإجراء الاستثنائي ثم التبرير له والحشد له لا يُسمى في العُرف السياسي إلا بلطجة سياسية واستخدام غير مشروع للسلطة التنفيذية..

في إحدى الحلقات الحوارية على قناة ontv كان الضيوف ثلاثة أفراد..اثنان ممثلان لجماعة الإخوان المسلمين رجل وامرأة جلسوا يدافعون عن الإعلان الدستوري الأخير والذي صدم المجتمع المصري ونقله إلى حالة عنف لم يشهدها المصريون منذ مئات السنين، بينما كان على الجانب الآخر-الجانب المعارض-هو الأستاذ عبدالحليم قنديل الكاتب الصحفي المشهور..ويالهول ما رأيت وسمعت..رأيت فارقاً ملحوظاً ومستفزاً بين قُدرة قنديل على التحليل والتركيب والاستدلال والاستقراء وبين قدرة الضيفين الإخوانيين على مجاراة الرجل في أسلوبه القوي في الإقناع..فرغم وجود ذلك الفارق في المظهر والشكل بين الطرفين بحيث أنك لو رأيت الثلاثة يجلسون بصمت سترى ومن أول وهلة أن الحق سيكون مع ضيوف الإخوان..وذلك لعدة عوامل أهمها المظهر وتعابير الوجه وملامحه، فمن يرى قنديل من خلف نظارته"قعر الكُبّاية"وصلعته التي أكلت رأسه لا يرى فيه تلك الشخصية الكاريزمية المؤثرة، ولكن فور انطلاق الحوار تبدلت الأوضاع وظهر الفارق الكبير حتى طال ذلك قدرة قنديل على قراءة أفكار خصومه وتحليلها بشئ من العبقرية.

أزمة التقليد

تعاني المنظومة الفكرية داخل الجماعة من عَطَن التقليد من أثر السمع والطاعة، والتقليد في العادة لا يُنتج سوى نُظم إدارية شمولية تمارس الطُغيان باسم المحافظة، فالتفكير الحر داخل الجماعة يكاد يكون معدوم ولا يُسمح به إلا في إطار الذود عن الجماعة ومشروعها، وهذا يُفسر انعدام وجود المبدعين ممن التحفوا بالعباءة الاخوانية، فالعمل الجاد والإبداعي يتطلب أولاً التخلص من

الأوهام، ولم أرَ في خلال سنواتي مع الجماعة أي محاولة لرصد تلك الأوهام الموجودة في عمق كل إنسان،فأعتقد أنه وبمجرد القول بوجود الوهم داخل الجماعة فيتعرض قائله إما للعقوبات وإما للطرد، وأذكر أنني عندما كنت في الجماعة أن كنا في مجلس كتيبة ، فجلس المُحاضر يشرح مفهوم الدرس وكان عن .."توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية"..ولم يتوانَ السيد المُحاضر عن إسقاطه الردئ للمفهومين على المجتمع حتى بدا للجاهل قبل العالم أن الرجل يحكم بالكُفر على من بدا لنا بأنه مُقصّر في توحيده أياً كان ربوبياً أو ألوهيا.

حان وقت الأسئلة وقد كانت المُدة المتاحة لنا –كتلاميذ-هي نصف ساعة لا أكثر،تقدمت للسؤال ثم ألحقته بعمل نقدي للفكرة الرئيسية للمحاضرة وقلت بأن تقسيم التوحيد لم يثبت عن سلفنا الصالح وسقت له الأدلة، وأن التقسيم إن كان ذا موضع فهو اصطلاحي لا نفهمه بهذا الشكل الرهيب والذي يُذكرني بالشيخ سيد قطب –رحمه الله-واستشهدت حينها ببرنامج كان مذاعاً منذ أيام عن الشيخ القرضاوي والذي أقر فيه بأن الشيخ سيد قطب لم يكن على مذهب السنة في آخر حياته، وأن الرجل كان خارجياً تكفيرياً من أثر ما عانى منه من صنوف العذاب، وقلت أنني أتحفظ على رأي القرضاوي ولكن شهادته يجب تدارسها لأنني فهمت-وأنا أول مرة أسمع للسيد المُحاضر-أنك تقول بكُفر وجاهلية مجتمعنا..كان هذا اختصار ما حدث مني ثم جاءت فقرة تعقيبه والتي لم تخلُ من التبرير-كالعادة-ولكن لاحظت أنه نفى قوله بأنه يقول بكفر أحد وأن منهج الإخوان لا يحكم على الناس ولماذا لا يكون السبب في أفهامنا نحن وتفسيرنا للأشياء.

حقيقة أنا لا أؤمن بصلابة أي فكرة إلا بعد طرحها بعيداً عن الهوى المُجرد،أو أن تأتي في سياق الإنصاف والجدلية.. فالرجل بان أنه وبعد أن تعرض للضغط آثر المراجعة والنفي، وهذا سلوك قد يسلكه بعض السياسيين والفقهاء، ولكن أن يسلكه محاضر في قاعة أو في منزل فهذا يثير التساؤل لماذا كانت هذه المحاضرة إذاً؟!..إن ما حدث يستدعي الرجوع بنا إلى عصر الشيخ سيد قطب وأفكاره

التصنيفية التي تسببت في نشوء أقوى جماعات العُنف السياسي في التاريخ المصري، فإذا قُلنا وبنفس منطق المحاضر أن العيب –كل العيب -في أفهامنا نحن وتفسيرنا للأشياء فلا حاجة للعوام والجهال من أمثالي بالتكليف، ولماذا ننفي عن أنفسنا التقصير سواء في إيصال الفكرة الصحيحة أو في قصور المعرفة أو في غلبة الهوى أو التقليد إن كنا حقاً نريد وجه الله وسنة رسوله.

لا أريد أن أسرد ما حدث بعدها بالتفصيل ولكن شاء الله أن نتعرض لعقوبة شهرين أو ثلاثة-على ما أتذكر -بحرماني من حضور الكتيبة الشهرية، وأتذكر أنني تعرضت لتوبيخ ونهر شديدين من نقيب الأسرة ومن زملائي..وكل جريمتي أنني قلت رأيي بصراحة ووضوح بعيداً عن التقليد أو التقديس، حينها كان من ينقد أي فكرة من أفكار الدكتور "علي لبن" التي كنا نتدارسها أسبوعياً يعني أننا نسير في الاتجاه الخطأ، وأظن أن ما طرحه السيد المستشار موجود في دروسنا التي نتلقاها عن تقليد وانقياد تامين..فأحسب نفسي أنني أكره الانقياد والتقليد ولا أنكر أنني أحيانا أتبع الهوى فهذا ما نعاني منه بني البشر إجمالاً والشاهد في من يقاوم رغباته وأهوائه لا أن يتعامى عنها تعصباً وحِزبية وانقيادا..فالمُقلد أعمى وكما قال ابن القيم بأن المتعصب بالهوى والمُقلد الأعمى ليسوا من زمرة العلماء ولو كان الناس يرونهم كذلك.

يقول عبدالمؤمن الأصفهاني في كتابه "أطباق الذهب"..(مثل المقلد بين يدي المحقق مثل الضرير بين البصير المُحدق، ومثل الحكيم والحشوي كالميتة والمشوي،أقنعه رواية الرواية عن دُرّ الدراية، وما أشقى جُهالاً قلدوا آبائهم فهم على آثارهم مقتدون، أوَ لو كان آبائهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون)..وكلام الأصفهاني يُذكرني بأحوال المستشرقين الذين أفجعونا على واقع ديني وفكري بغير ما ورثناه عن آبائنا في مطلع القرن العشرين.

لم يكن للأجنبي–قبلها-إرادة الخوض في تراث المسلمين، ولكن فور دخولهم أحدثوا هزّة عنيفة في وعي المسلمين والنُخبة المثقفة بالتحديد، أعتقد أن السبب من وراء ذلك أنهم بحثوا في تراث المسلمين بعقل متحرر عن التبعية والانقياد، وأن أقوال ومفاهيم.. "كقال السلف أو أجمع أهل العلم أوحدثنا فلان أوالقاعدة تقول"..كل هذا لم يهتموا به لأن طُرق تفكيرهم ليست مثلنا، ولا أنكر أن الكثير مما وصل إليه المستشرقين محل نظر ، وأن عامل اللغة والثقافة يقف أحياناً عائق بين النص والتأويل بين القاعدة والتفسير بين التاريخ والتراث..ويخلط في أمور عديدة بين النقد والرد بين القبول والإيمان بين البحث من مرجعية الاجتهاد للحق وبين البحث من مرجعية الانتصار للذات.

أخيراً فالأزمة التي أراها داخل الإخوان -وكما أشرنا إليها من قبل في مواضع عدة –هي جزء من الكل النابع من ثقافة وظروف المرحلة، وأن ما يعاني منه الإخوان يعاني منه المجتمع العربي بالعموم، فالتقليد سمة المرحلة في كل شئ، حتى ممن سموا أنفسهم علمانيين بعضهم يُقلد ويحصر نفسه في مفاهيم ورؤى السابقين أو الحاليين، بينما أرى أن التقليد هو انقياد بالتبعية ، وأن المقلد- ومن أثر تعصبه وجموده- إذا انتقد شيئاً فينقد مخالفه بوقوفه على النقائص والدنايا ويغفل عن صوابه وحسناته، وليس هذا من منهج أهل الحق في شئ، فليس المطلوب مني كمؤمن أو كإنسان أن أسير على أفكار فلان حتى إذا دخل جحر ضب فندخله حينها تنتفي الحرية ونُصبح عُبّاداً لأشياء لا تستحق.

الأزمة مع الإعلام

كعادة من يريد السيطرة على شئ فيُطلق ألفاظاً تبرر لها هذا السلوك، والإخوان عندما أرادوا السيطرة على الإعلام رفعوا شعار"التطهير"كنداء يمكن حشد الطبقات

الكادحة والعوام خلف هذا الشعار، ويُعطون رسالة لأتباعهم بعد ذلك أنهم على الطريق الصحيح، وأن وقوفهم ضد الشئ يعني أنه فاسد .

مبدئياً فمُصطلح التطهير يعني وجود شعور داخلي بالإمعان في الصراعات..وهو أقصى شعور بالرفض ينتج عنه المواجهة، فما كان في السابق حواراً أو جُهداً للإصلاح تحول الآن إلى مُطالبات بالتطهير لحضور اليقين القوي باستحالة الإصلاح، لذلك أن لا أؤمن بصدق هذا الشعور إلا بعد تخطيه المراحل الأولى له سواء ببذل الُجهد في الحوار أو في العمل الجاد "من داخل" تلك الأشياء المُراد تطهيرها -بُغية الإصلاح..وهذه المراحل مُنعدمة عند جماعة الإخوان..وبالتالي فيظهر ندائهم بالتطهير خالياً من الشفافية والوضوح..

وفي وسط هذا الغموض نرى عجزا عن صناعة منتج ثقافي مقبول يحوي بديلاً عن ما اصطلح عليه القوم بالتطهير، بمعنى أن هذا الُمنتج يتطلب أولاً التخلص من الخوف المرضي وفوبيا المؤامرة والإيمان بحق الآخر في المعارضة والمنافسة وثبات المبدأ وخلافه..فإذا لم يتحقق شيئاً من ذلك فنداء التطهير هو بالأصل فوبيا مؤامرة نتجت عن خوف مرضي أو تسلق نفعي براجماتي..وفي كل الحالات هو كذب وخداع للذات قبل الغير.

سنحاول رصد نداء الجماعة بالتطهير وسنرى أن جماعة الإخوان تُطلق صيحات- هذه الأيام- بضرورة تطهير مؤسستي"القضاء والإعلام"..وانتبهوا لإشارة"هذه الأيام" لأن الإخوان في السابق لم يرفعوا مثل هذه الشعارات إلا بمضامين مغايرة وعلى استحياء كمثل مطالبتهم بتطهير الإعلام من السفور والتعري والإباحية في السابق..ولكن لم يتطرق أحد منهم لمطالبهم اليوم بتطهير الإعلام والذي يشير إلى استغلال الخلاف السياسي في شرعنة وتجديد تلك الشعارات بمعنى إعادة إحيائها بثوب جديد، وكأن مطالبهم في الماضي كانت لكسب تعاطف العامة الرافضة لمثل هذه السلوكيات المخالفة للدين وللأخلاق، بينما في الحاضر انحصرت مطالبهم في

التخلص من كل ناقد أو معارض وسنُثبت ذلك في السطور القليلة القادمة بإذن الله، وما ينطبق على الإعلام ينطبق أيضاً على القضاء وسنرى.

بالنسبة لتطهير الإعلام فينبغي أولاً التعرف على ماهية ذلك الإعلام المقصود..فهم يرون الإعلام في صورة الإعلام الفضائي الممثل في القنوات المصرية الخاصة، بينما لا يألون بالاً للإعلام الحكومي التابع لمؤسسة اتحاد الإذاعة والتلفزيون..

كل ذلك حينما كانوا في السلطة

والسبب أن الإعلام الحكومي كان يقف على منصته واحد من قيادات الجماعة وهو الأستاذ صلاح عبدالمقصود، وبالتالي فمطالبهم بتطهير مؤسسات الحكومة الإعلامية ستصطدم مع توجهات قادتهم الراغبة في إفساح العمل -دون شغب - لمسئوليهم في مواقع السلطة، كذلك لأن الإعلام الحكومي يكاد يكون مهادناً للإخوان بدرجة كبيرة ويصل في بعض الأحيان للتأييد التام، وما كانت مظاهرات إعلاميي ماسبيرو مؤخراً إلا إشارة وجود مثل هذا التصنيف والازدواجية داخل تلك المؤسسة العريقة، بمعنى أن الإخوان عملوا على ترسيخ توجهات ماسبيرو بتأييد الحاكم ولم يعُالجوا نفاقه للأنظمة القديمة، وكأن هوية ماسبيرو خدمت الإخوان فقاموا على رعاية سلبياته بل وتطويرها!

أما بالنسبة للإعلام الخاص فهو إعلام حُر منذ ولادته، يكفي أن النظام القديم كان يحاول السيطرة عليه بشتى السُبل المشروعة والغير مشروعة في محاولة لتحجيمه باستخدام أساليب التشويه المتعددة، فالكلمة الحرة هي أكثر ما يثير قلق الطاغية بشكلٍ عام،فمعنى وجود كلمة حرة يعني تخلصها من كافة القيود الحزبية والنفعية وحتى البيروقراطية، فالأخيرة هي أداة المتسلط في فرض رؤيته..

خاصة في العصر الحديث، وما من مجتمع تكاد تتعشش فيه هذه الآفة إلا ويُصبح ملاذاً للتسلط وللإرهاب..والعجيب أن رفع الجماعة لشعار تطهير الإعلام الخاص –والذي تمثل في اعتصام جماعة حازمون وشعارات وهتافات الإخوان وتصريحات قادتهم وشيوخهم-رافق هذا السلوك ظهوراً قوياً للجماعة في هذا الإعلام،بل ومنذ قبل قيام الثورة إلا وكان هذا الإعلام هو بيت الجماعة الأول لتغطية أخبارهم ولقاء مسئوليهم وشبابهم، هذا لأن ظهور الجماعة على الإعلام الحكومي كان غير جائز لاعتبارات تتعلق بحظر الجماعة ونشاطها...نستنتج من ذلك أن الجماعة رفعت شعار"تطهير الإعلام"إلا بعد انحراف سلوكها وبُعده عن القانون والشريعة والأخلاق في محاولة لكبح جماحه عن رصد أخطاء الجماعة.

أخيراً فقد ظهر لنا بأن مطالبات الجماعة بتطهير الإعلام لم يكن في حقيقته إلا محاولات"تطويع"وليست محاولات "تطهير"..فالإعلام في حقيقته لا يعدو كونه أداة نقل وإخبار وتحليل للأحداث..وفي العادة يرفض المتسلط تقويم أدائه أو نقد أفكاره وأعماله، وبالتالي سيظهر أي ناقد في صورة أقرب"للشيطان"الذي يحاول جاهداً تشويه هذا الملاك الرحيم الذي لا يخطئ!..الحل في استقامة الرأي وبُعده عن التنميط، وأن يكون الرأي مبرراً بمبررات قانونية وشرعية مصحوبة بسلوك يعزز هذا القانون وتلك الشريعة، فإذا حدث خللاً في تلك المنظومة سيطفو على السطح صراعاً يسوده منطق"البقاء للأقوى"فالنفس الإنسانية تبتعد عن الأسباب الحقيقية للصراعات في العادة وتعمل على تحويل تلك الأسباب لأهداف ذرائعية محضة يُصبح معها الإنسان أكثر نفوذاً وحماية.

الأزمة مع القضاء

لمواجهة الباطل قواعد تنبني عليها المواجهة، أهم هذه القواعد هي قاعدة العدل، فالنصر على الباطل في ذاته نجاح ولا يوجد باحث عن النجاح إلا ويلتزم بمعيار

العدل في أقواله وأفعاله..هذا إن كان باحثاً عن السعادة والراحة، أما أن يختلط النجاح لديه بالقلق والكَبَد فثمة تقصير على المستوى الشخصي والمِهني، فالشعور بالقلق يأتي بالتوجس والريبة من كل مخالف، لذلك كان أعظم الناس بُغية للإصلاح عند الله هم من أحياهم الله حياةً طيبة..قال تعالى.. "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً"..وشرط العمل الصالح هو التواصي بالحق والتواصي بالصبر..قال تعالى .."وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ"..فالبيان الإلهي يشير إلى أن صفات الصالحين الذين استثنائهم الله من الخُسران هم من عملوا على تذكير أنفسهم بالحق، أما من يعرض عن هذا العمل الطيب تعصباً وحُمية أو مكابرة واستكبار أو مزايدة وانتقام.. فهؤلاء هم أهل الهوى قد أضلهم الله فخسروا أنفسهم إلى ما شاء الله.

هذه المقدمة لتبيان أن أي مواجهة لا يلتزم فيها طرف من الطرفان بالعدل وبالتواصي بالحق فمصيره أولاً أن يخسر نفسه، ومن خسر نفسه ولم يُجهد نفسه بإحيائها فسيخسر الناس إلى أن ينتهي ككيان إنساني..أما عندما يكون أحد طرفي الصراع هو ممثل العدل -والذي هو قوام النجاح- فالمقاييس تختلف..فإما أن الطرف الممثل للعدل ينتهكه حينها تكون ساحة المواجهة أقرب لفرض القانون الشخصي واعتباره عاماً وتلك شريعة الغاب، وإما أن الطرف الآخر يجور على العدل ولا يبغي في ممثله أن يتعقبه أو يكشف جرائمه حينها يكون صراعاً بين الحق والباطل..

وفي الحالة المصرية ترفع جماعة الإخوان شعار"تطهير القضاء"في محاولة منهم لما يصفونه بأنه تطهير لتلك المؤسسة العريقة من الفساد السياسي والمالي معاً..حقيقة تلك الاتهامات لمؤسسة العدل لابد وأن تكون لها أسباب واضحة وأدلة دامغة لا تقبل التأويل، علاوة على أن تكون صفة الاتهام لا يشوبها أي تعميم،

فليس بمجرد ظهور وثبوت فساد أيٍ من القُضاة أن المؤسسة بالكامل على هذا المنوال.

هم يقصدون برفع هذا الشعار تحديداً قُضاة.."الدستورية العليا ونادي القُضاة"..وإذا نظرنا قليلاً في هاتين المؤسستين سنجد أن الأولى هي من لها حق محاسبة وعزل الرئيس، أما الثانية فهي صانع تيار الاستقلال القضائي عن السلطة التنفيذية، وهذه الإشارة لها دلالات سنختصرها في أن الجماعة برفعها لهذا الشعار لا تريد محاسبة قضائية وتأمين تام لرئيسها في كرسي الحُكم، وكذلك السيطرة على مؤسسة العدل ألا تخالفها تلك المؤسسة الغائرة في وجدان الإنسان بأنها حِصن العدالة لكل مظلوم..

إذا عُدنا قليلاً إلى الوراء وبالتحديد قبيل قيام ثورة ٢٥ يناير سنجد تحالفاً وثيقاً بين نادي القُضاة وبين جماعة الإخوان وسائر أحزاب المعارضة "الفعلية"..والذين كانوا يُمثلون جميعاً حصناً للعدالة في مواجهة تغول الدولة والسلطة الغاشمة معاً، حتى أن من بين رموز استقلال القضاء عن السلطة التنفيذية-حينها- كان قُضاة الجماعة وبعض المستشارين ممن يشغلون مناصب عامة الآن في "سُلطة الإخوان" كالمستشارين أحمد ومحمود مكي، ولكن بعد تبدل الأوضاع السياسية للجماعة من المعارضة إلى الحُكم وقعوا في نفس ما كان يقع فيه النظام القديم.

يظهر لنا بأن الجماعة تحاول"تطويع"القضاء لإرادتها فترفع شعار التطهير بعملية إزاحة نفسية أصبحت هي السمة الأبرز للسلوك الإخواني في هذه الأيام، فمثلاً عندما يريد مكتب الإرشاد فض اعتصام المعارضة من أمام قصر الرئاسة فيلجأون إلى تصدير بعض الإشاعات كإشاعة"المجلس الرئاسي"أو اقتحام المعارضة للقصر، أو اختطاف الرئيس.. وما إلى ذلك من إشاعات"خيالية وتافهة" دأبت الجماعة على ترويجها داخل الصف الإخواني لتبرير هذا السلوك العدواني والذي سقط بسببه العديد من الشهداء.

ولكي لا يلومهم العامي البسيط فيلجأون إلى تشويه خصومهم والادعاء بأن شباب وفتيات المعارضة المعتصمين كانوا يزنون في الخيام، وأنه لم يكن اعتصاماً حقيقياً وكأن الجماعة كانت سترضى بهذا الاعتصام فيما لو كان المعتصمون ملائكة! إنه الكذب على الذات والتبرير الدائم لسلوكيات لا أخلاقية بهدف الحشد لا غير...لا أفهم كيف يتدارس قومُ الصدق ويحضون عليه فيما بينهم ولكن تفضحهم سلوكياتهم بهذه الطريقة التي أصبحت على مرأى ومسمعٍ من الجميع.

إن المؤسسة القضائية لا خلاف على وجوب تمتعها بالاستقلال التام عن أي توجهات أو صراعات سياسية بين الأحزاب والتيارات، وهذا ما جعل شرطاً من شروط تحقيق صفة القاضي في شخصٍ ما ..هو أنه لا ينتمي لأيٍ حزبٍ سياسي ولا أن تكون له شُبهة انتماء سياسية على الإطلاق، الهدف من ذلك هو تحقيق أقصى درجات الحيدة والنزاهة، وهي مسألة ضرورية لأي مجتمع يعيش في إطار الدولة "العادلة" التي تحقق مصالح الجميع وتحميهم من أي تجاوزٍ أو ظُلم قد يُؤدي إلى فوضى تهدم الدولة وتُشرّع لمنطق الغاب والبقاء للأقوى.

بينما جماعة الإخوان المسلمين هي جهة سياسية دعوية وليست قضائية، وهذه الصفة تُحتم على الجماعة أن لا تتدخل في شئون القضاء سواء بتكوين جماعات داخل المؤسسة القضائية موالية لها أو أن تتهم المؤسسة بالكامل بأنها ظالمة وتعمل لصالح خصومها ابتداء....

وبنظرة سريعة على طريقة تعامل الإخوان مع السُلطة القضائية سنراها قد حققت كِلا التجاوزين في حق القضاء المصري، أولها هو تشكيل جماعة داخل تلك المؤسسة العريقة تعمل لصالح الجماعة وتأتمر بأمرها وتُدافع عنها وهي .."حركة قُضاة من أجل مصر"..والتي ظهرت للعيان بعد ثورة ٢٥ يناير ولم يكن أحد يعرفها أو يفهم طبيعتها إلا بعد الانتخابات الرئاسية وفوز الدكتور محمد مرسي

برئاسة الجمهورية، حينها اكتفت الحركة بالدفاع عن الرئيس الجديد وتبرير قراراته، ومؤخراً لُوحِظ تردد بعض أعضاء هذه الحركة على مكتب الإرشاد لجماعة الإخوان..وهو تصرف غريب حمل في طيّاته علامة تسييس هذه الحركة لصالح أحد الفصائل والجماعات على الساحة.

بينما التجاوز الثاني كان-كما قلنا- في رفع الجماعة لشعار.."تطهير القضاء"..وهو شعار لا ينبغي أن يُرفع من خارج المؤسسة القضائية، أي يُحظر استخدامه في الصراع السياسي أو في تظلّم أحد الأطراف في المحاكم من القضايا التي تُدينه..ونحن نلحظ جميعاً بأن جماعة الإخوان ترفع هذا الشعار في حالة واحدة فقط وهو شعورها بالخطر..ويعني ذلك أن الجماعة تريد أن تتجاوز وتُخطئ ولا تريد لأحد أن يُحاسبها أو يُدينها..وهو منطق السارق بوجهٍ عام..فالسارق يكره اثنين.. الأول هو رجل الشرطة والثاني هو القاضي ،ومنطق تعامل الجماعة مع القضاء المصري يتطابق بالكامل مع منطق السارق.

بالعودة إلى الماضي سنرى أن منطق الجماعة مع القضاء لم يتغير، وأن الماضي يشرح أن صراع الإخوان مع القضاء هو قديم قِدَم الجماعة نفسها..وقد كانت أشهر معالم هذا الصراع في اغتيال أحد أعضاء الإخوان للقاضي الخازندار، وهي حادثة شهيرة حدثت في أربعينيات القرن الماضي ولا زالت نقطة سوداء في تاريخ الجماعة..ومؤخراً وبالتحديد قبل ثورة ٢٥ يناير لم تنتهِ الجماعة عن هذا الصراع فخاصمت وهاجمت وشوّهت مجلس القضاء الأعلى والذي كانت تتهمه بموالاة الرئيس مبارك على حساب الحق والعدل..بينما كانت تنتصر لنوادي القُضاة باعتباره مؤسسة قضائية ليست تنفيذية وخارجة عن سُلطة وإرادة الدولة...ومن المُثير أن موقف الجماعة قد تغير تماماً إلى العكس بعد صعودهم للسُلطة، أي أنهم أصبحوا في عداءٍ تام مع نوادي القُضاة، وفي توافقٍ تام مع مجلس القضاء الأعلى..وهذا يُثبت أن منطقهم ورؤيتهم الآن تتطابق بالكامل مع رؤية النظام السابق لتلك المؤسسات –حسب فهمهم

بينما في كل معركة انتخابية كانت تظهر الجماعة بكيلٍ من الاتهامات والسُباب في حق العديد من القُضاة تتهمهم فيها بالتزوير لصالح خصوم الإخوان في الانتخابات، وأتذكر بالتحديد ما حدث في دائرتي..(الدقي ودمنهور)..في انتخابات مجلس النوّاب عام ٢٠٠٥..ففي دائرة الدقي اتهمت القاضي بالتزوير لصالح الدكتورة آمال عثمان وهي أحد رموز الحزب الوطني وإسقاط مرشح الجماعة الشيخ حازم صلاح أبو اسماعيل..وفي دمنهور اتهمت القاضي بالتزوير لصالح الدكتور مصطفى الفقي على حساب مرشح الجماعة الدكتور جمال حشمت.

حينها لم يخرج أحد من الجماعة ليُعلن كيفية حدوث هذا التزوير، أو بطرح ما لديه من أدلة، واكتفى بعض مؤيدي الجماعة –حينها-بطرح العديد من الشُبهات والظنون التي رافقت العملية الانتخابية وفرز الأصوات، ولكن هذا لا يكفي..فالقضاء لا يعتد بالشُبهات أو الظنون..بل في هذه المسائل لابد فيها من الدليل الراجح القاطع وإلا لن يكون للحديث عن التزوير أي معنى..علاوة على أن التزوير كما يتوهمه الإخوان وصرّحوا به مراتٍ عدة هو مفهوم في غاية السذاجة والبلاهة..

فهم يفترضون أن القاضي يعادي الإخوان لذلك قرر تغيير النتيجة لصالح مرشح الوطني..هكذا وبدون طرح أي أسئلة..كيف ومتى ولماذا ومن هو...وهل يصلح هذا التغيير في حضور جماعة من القُضاة أم أن القاضي الذي يتهمونه هو من قام بفرز وحساب الأصوات بمفرده!!..وإذا كان الأخير فلماذا لا يستبدلون اتهامهم لقاضٍ واحد باتهام جماعي واسع للعديد من القُضاة؟!...أسئلة موجهة للإخوان كي يُجيبوا عنها..فهم قد اعتادوا على إطلاق الاتهامات بغض النظر عن طبيعتها وهل هي حقيقية أم لا..وإذا كانت حقيقية لماذا لم يشرحوا لمؤيديهم طبيعة هذه الاتهامات وحقيقتها والأدلة التي بحوزتهم..

لكن مع كل ذلك كانت الجماعة حينها في المعارضة، أي أن اتهامهم للقضاء حينها كان يحوز على رضا وعواطف بعض فئات الشعب، وأن منطقهم كان يشوبه بعض الحق باعتبار أن السُلطة القائمة هي سُلطة جائرة تتدخل في شئون القضاء..أما الآن فقد تغير الوضع..كانوا في السُلطة وأخذوا تجربتهم في المسئولية، وهذا يعني أنهم كانوا مسئولون عن أي تجاوزٍ في حق القضاء باعتباره أحد المؤسسات السيادية والمستقلة للدولة، وأن لا يُكرروا نفس ما كانوا يرفضونه في السابق من تدخلٍ في شئون القضاء إذا ما سلمنا بأن النظام السياسي القديم كان يتدخل فعلاً في شئونه..ولكن كل هذا لم يؤثر في وضع الجماعة ومنطقهم في التعامل مع القضاء المصري، فهم لا زالوا يتعاملون مع القضاء ومؤسسة العدل بالكامل بنفس منطقهم عندما كانوا في المعارضة وهو..أن يشنوا عليه حملةً شعواء إذا ما شعروا بالخطر من جراء أحكامه..وأن يطالبوا باحترامه إذا ما شعروا بأن هذه الأحكام لصالحهم ولصالح السُلطة التنفيذية..

أزمة العبودية

تُشكل القيود التنظيمية داخل جماعة الإخوان دائرة واسعة لتهميش الرأي الحر ، فالقيد التنظيمي يتعامل مع الإنسان كشخوص اعتبارية ..ومهما توسعت وظائفه ولكنه يظل مُستهلَكاً يعمل داخل إطار الجماعة لنفسه ولغيره..هذه سمة عامة من سمات الجماعات المُنظّمَة والتي تُشكل فيها الأيدولوجيا الأساس..لكن وبعد أن فرضت الحداثة نفسها على الأمم ظهر تحدياً كبيراً على أي جماعة- تتشكل عبر الأيدولوجيا..ففي الغالب تتكون تلك الجماعات بناءاً عن سلطة التاريخ خاصةً في مناطق الشرق الأوسط والعالم العربي، وبناءاً عليه ستظهر لنا العديد من الجدليات كي تصنع الفوارق في الرأي.. كجدليات.."الديمقراطية والشورى-والدين والسياسة-والحرية والمحافظة"..وغيرها من الجدليات التي باتت عُنصراً هاماً للتثاقف.

في جدلية من الجدليات "كالديمقراطية والشورى" لابد وأن ينشأ لدينا رأياً حراً وآخر محافظا..وفي داخل جماعة الإخوان لا أرى تعاطفاً مع فكرة الديمقراطية لاعتقادهم بأن بديل الشورى هو الأصل الكافي لرسوخ العدل، والشورى فكرة مستمدة تاريخياً باعتبار وجودها في القرآن علامة من علامات المؤمنين.

وبالتالي فأي رؤية لها- تعتبرها لا تؤسس لحُكم رشيد- تدخل ضمن المُنكرات العقلية والشرعية لتعارضها مع النص، وليس هنا الإشكال بل الإشكال في أن من ينادي بالشورى هو لم يؤسس لها نظرياً وعملياً كي لا يسري وراء اجتهادات من مارسوها من قبل وفشلوا في إرساء العدالة وشاع الظلم بين الناس، فالشورى حسب رأي الناقدين تتطلب تجريداً شاملاً للوقوف على بواعثها وأسبابها وبالتالي نتائجها المتوقعة، وما هي الظروف الملائمة لتطبيق الشورى، بينما الديمقراطية-كفكرة-تكاد تكون واضحة المفاهيم ومؤسسةِ لنظام اجتماعي وسياسي عدا بعض التفاصيل والتي يتسع الخلاف في شأنها دون المساس بالأصل.

من هذا المُدخل رأيت أن جدلية"الشورى والديمقراطية"هي التي أنشأت .."أحراراً ومماليك"..وبالتالي عبودية داخل التيار الإسلامي السياسي وبالأخص جماعة الإخوان ،فالشورى في أذهان الإسلاميين عبارة عن أفكار غير مدروسة ومفاهيم غير مُجردة..وبالتالي حين إسقاط تلك المفاهيم والأفكار –كسلوكيات- سيبرز لنا.."كُتلة صمّاء لا روح فيها يتبعها كل مُقلّد"..مرجعيتهم فيها التاريخ وحسب دون النظر لجوانب البيئة والثقافة والحضارة وغيرها من الجوانب التي تعمل كمؤثرات..أنا لا أتعاطف "بالمُطلق"لا مع الديمقراطية ضد الشورى أو العكس ليقيني بأن معيار الحق والصواب يختلف من شعب لآخر ومن بيئة لأخرى..لذلك ليس عندي مانع من تبني مفهوم الشورى -حسب اعتماده كنص-ولكن ليس قبل تحريره واستنساخ تجاربه في الماضي والحاضر للاعتبار.

معنى أن يلهث الفرد وراء تلك الكتلة الصمّاء المسماة"بالشورى"يعني في الحقيقة أنه يلهث وراء أشخاص هم مُلّاك حق التعريف والإسقاط،فنِقاط الديمقراطية ليست واضحة عنده، بل هو لا يتبنى بعض قواعدها لاعتقاده بتعارضها مع النص المقدّس..أما الفرد الذي يفهم الديمقراطية أو هي مؤسَسَه لديه عبر قناعات إنسانية ووجدانية..فسيتمرد على تلك الكُتلة الصماء دون أن يعرفها أو ما بداخلها..

هذا لأنه لم يرَ منها ما يُحقق قناعاته..أما إذا تداخلت التعريفات عند أي فرد منهم أو كلاهما فالأزمة ستتعمق وأظن أن ذلك يتحقق بشكل ملحوظ داخل التيار الإسلامي عامة..بمعنى أن من لا يطمئن للديمقراطية لاعتقاده بأنها حرام ثم يمارسها رغماً عنه فسُرعان ما سيكتسب صفة"الاختزال"بأن يختصر المنافسة مع الخصوم في أحد أوجه الديمقراطية الغير مختصة بموضع النزاع.

المماليك داخل جماعة الإخوان هم من يتبعون"الشورى"حسب تعريفاتهم وأفهامهم التي سبق وأن قلنا عنها أنها غير واضحة وغير قابلة للتنفيذ إلا بمفهوم الحاكم وليست النخبة..أما الأحرار فهم من يفهمون القواعد الإنسانية التي تحقق العدالة دون النظر لقضايا أخرى غير راسخة وغير مفهومة لديهم..فالكيان الإداري داخل الجماعة يستعمل "المماليك"لترويج أفكاره ..وتخدمه -في الغالب -بيئته المحيطة بحالتها الأمية والرجعية، أما "الأحرار" فينظرون لهذه البيئة "كموضع أزمة"وأنها نقطة ضعف وليست نقطة قوة...وبالتالي فهم يعملون على التواصل مع النُخَب أكثر لتوصيف ورصد تلك الأزمة ابتداء، بينما "المملوك" يعمل على ترسيخ أفكاره التقليدية بسهولة في تلك البيئة التقليدية..فمفاهيم كمفهوم.."الحاكم الأب"..هو مترسخ في وجدان الشعب المصري منذ زمن بعيد..وهو مفهوم تم انتزاعه من المَثَل الشعبي.."اللي مالوش كبير يشتري له كبير"..طالما كان هذا المفهوم وتلك الأمثال الشعبية تخدمهم فلا مانع.

خاتمة وكلمة عن الإرهاب في مصر

لم يكن بخُلد عموم المصريين -وانطلاقاً من وعيهم الجمعي- بأن تتحول المُدن المصرية من مُدن يعمها السلام إلى مُدن يسودها الكر والفر والضرب والقتل بين متصارعين أحدهما موالي للحكومة والآخر معارض لها، قد يأتي السؤال ولماذا ننفي ذلك عن المجتمع المصري ولدينا مشاهد وأحداث ثورة يناير، ولكن أنا لا أرى في أحداث ثورة يناير -خاصة جمعة ٢٨ يناير وما أعقبها من أحداث -إلا أنها كانت مواجهات بين الشعب المصري والشُرطة .

حتى مشاهد موقعة الجمل"الشهيرة" لم تكن فيها الأحداث بين طرفين يتصارعان عن عقيدة وأيدلوجيا، بل كان هناك طرفاً يتمتع بهذه الأشياء والآخر جرفته الأقدار إلى تلك المواجهة المشئومة والتي حفرت طريقها بسهولة إلى الذاكرة المصرية العتيقة،علاوة على كون هذا الطرف يرى منفعته في ما جرى من أحداث ولا يمكن توصيف أصحاب الجمال والخيول-السياحية- أنهم كانوا يُقاتلون عن عقيدة، إذ يُشترط في بناء العقيدة أن يكون الإنسانُ عارفاً مُطمئنا، ولا أظن هؤلاء على قدرٍ من الثقافة والوعي السياسيين أن يُقاتلوا فئة وهم يعلمون ماهية وعاقبة ما يفعلون.

إن الخطر الرئيسي على الأمن القومي للشعوب هو أن يُقاتل الإنسان في ظل وجود عقيدة دينية أوعرقية..ابحث عن العقيدة،وليس المقصود حصر مفهوم العقيدة في هذا المفهوم، بل هناك عقائد أخرى سياسية وأيدلوجية لا تقل خطورة في تَبِعاتها عن العقائد الدينية والعِرقية.

وما حدث في المُدن المصرية ..بدءاً من إصدار الرئيس المعزول مُرسي لإعلانه الدستوري المشئوم في نوفمبر ٢٠١٢ مروراً بثورة يونيو ٢٠١٣ ثم وبعد فض اعتصام ميدان رابعة العدوية ..إلا وظهر لنا صراعاً بين فريقين ، أحدهم يقاتل عن عقيدة دينية ..وهنا مكمن الخطورة،فالفريقان على قدرٍ من الثقافة أياً كانت صحيحة أم خاطئة لأنهما لم يتواصلا بشكلٍ كافٍ قبل الثورة، وهنا لا أرمز بالثقافة على أنها المعرفة المُطلقة بل أرى أن الصراع الذي يدور في مصر بسبب أن الإخوان يضيقون ذرعاً بالمعرفة، وهي مُقيدة لديهم ومحصورة إما في ماهيات القرارات أو في الشخوص، وهو ما حملهم على حصر كافة مُشكلاتهم إما في قرار استثنائي أو في شخص فلان وعلان بينما المسألة أكبر من ذلك بكثير.

إن الإنسان المصري الجديد هو يطمح في تغيير ثوري ليس فقط في المجال السياسي بل أيضاً في المجالين الثقافي والتربوي، فإذا كانت كل هموم السلطة تنصب فقط على التغيير السياسي فلا يمكن وصف هذا التغيير بأنه تغييراً ثوريا، وإذا شجعت السلطة على التغيير الثقافي ستجري محاصرة أعمال العنف التي سلبت من المدينة المصرية أضواءها وأعطتها طابعاً إرهابياً يزداد قسوة مع مرور الوقت، وإن لم يحدث فسيشهد التاريخ أنه وبعد ثورة الشعب المصري على حُكم جماعة الإخوان أن انقلب المجتمع المصري من سلميته "المتوارثة" إلى مجتمع إقصائي حربي.

وبذلك تصدق مقولة من اتهم الجماعة في السابق بأن صعودها للسُلطة هو أمر خطير على أمن وسلامة المجتمع المصري بل على دينه وثقافته أيضا، وبعدما ظهر للجميع أن الخلاف السياسي تحول عند الجماعة إلى خلاف ديني، فانتشرت دعاوى التكفير بين قيادات وشيوخ ومنتسبين الجماعة، حتى سادت خطابات الكراهية في المجتمع ، وهذا يُثبت صحة من ادعى لزومية الأخلاق والمعرفة، فالمعرفة أخلاق والعكس، وأنا لا أثق في جاهل خلوق، لأن جهله في النهاية

سيكون هو السبب في توظيف أخلاقه لصالح جهله، وقد حدث هذا التوظيف من الإخوان والجماعات أكثر من مرة.

بمعنى أن يربط الجاهل بين معرفته وأخلاقه فيظن أن أحكامه الأخلاقية هي معرفة والعكس..وهذا أمر خطير، لأن الجاهل حينها سيتحدث بنزعاته وعواطفه، وهو ما أسمية.."بالخطاب النزعوي أو العاطفي"..لأنه في النهاية لا يؤمن بجهله، ويظن أن عند حدود معرفته تنتهي بالأخلاق، فيحكم على كل مخالف.."ديني أو سياسي"..حُكماً أخلاقي.

لذلك كانت قضيتي الأولى في التنوير هي محاربة الجهل، وأن لا نخشى في الله لومة لائم، وأن المعركة مع الجهل تساوي بناء الأمم والحضارات، فوقتما توجد هذه المعركة- وتكون إلى حدٍ ما متكافئة- ينتشر التنوير ويبقى الجهل محصوراً في حدود المصالح....هذا والله المستعان

كتبه الفقير إلى عفو ربه: سامح عسكر
يوم السبت الموافق ١٥ مارس ٢٠١٤
١٤ جماد أول ١٤٣٥